نسخة معالجة
وصفحات فردية

www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

أحلام يسيرة دونها أهوال

islamicFiles.NeT

تأليف
أ.د / مبروك عطية

www.ibtesama.com

التحويل لصفحات فردية
فريق العمل بقسم
تحميل كتب مجانية

بقيادة
** معرفتي **

www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

شكرا لمن قام بسحب الكتاب

www.ibtesama.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

الحمد لله الذى جعل حياة عباده حياة طيبة ، والصلاة والسلام على من صارت المدينة بسكناه إياها طيبة ، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه ولو بكلمة طيبة إلى يوم يعيش فيه التقى عيشة راضية ، ويكون فيه الشقى أمه هاوية وما أدراك ماهيه . نار حامية .

وبعد،،

فالكتاب فكرة، وفكرة هذا الكتاب خلاصتها أن هنـــاك أمـــوراً يسيرة تحقق السعادة فى الدنيا والآخرة، ولكـــن دونهـــا عوائـــق، تحول دون تحقيقها، وقد أطلقت على هذه الأمـــور الأحـــلام، كمـــا أطلقت على تلك العوائق الأهوال، فسميته "أحلام يـــسيرة دونهـــا أهوال".

وقد رأيت أن هذه الفكرة تتحقق فى فصلين:

الأول: أحلام يسيرة دونها أهوال من النفس البشرية أى مـــن سوء الطباع، وفاسد الموروث، وثقافة السوء، وفقد ما يحقق تلك الأحلام، كالذى يشتهى رغيف خبز، وليس معه نصف الجنيه الذى يشترى به رغيفاً يؤكل، فالرغيف حلم يسير، ولكن دونه أهـــوال، حيث فقد المحتاج إليه الذى يراه حلماً المال (وهـــو قليـــل) الـــذى يشتريه به، وكالزواج المبنى فى الإسلام كما يبنـــى غيـــره علـــى التيسير، تزوج عبد الرحمن بن عوف -رضي الله عنه- بوزن نواة ذهبـــاً، وزوج سعيد بن المسيب ابنته بدرهمين وهى القرشـــية الحـــسيبة النسيبة، ولكن دون هذا الحلم اليسير أهوال من العادات والتقاليـــد

www.ibtesama.com

الفاسدة التى جعلته من الأحلام العسيرة؛ إذ لابد من شبكة ومؤخر صداق كبير، وأطقم، ومفروشات وقاعات، وقائمة منقولات، وغير ذلك مما لا أساس له فى دين الله - عز وجل. وهكذا .

والثانى: أحلامنا العسيرة يسيرة عند الله .

ومعنى ذلك أن الله - تعالى - لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء، ونحن نعتقد أنه - تعالى - لو أعطى كل إنسان مسألته لما نقص ذلك من ملكه عز وجل شيئاً قال تعالى: ﴿**فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا. يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا. وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا**﴾.

قارن هذه المنح بالرغيف، فلن تجد نسبة بينهما فالمطر الذى تخضر بسببه الأرض، والأموال والبنون، والجنات والأنهار مما يشبه الأحلام المحالة، لكنها عند الله يسيرة ولكن دونها أهوال من العبادة المجانية التى لا تحققها؛ فقد فهم كثير من الناس الاستغفار على أنه بالكلام لا بالفعال وليس هذا صحيحاً؛ فإن معناه طلب المغفرة بالسعى فى سبلها كالصلح بين الناس، وبر الوالدين، وصلة الرحم، وإطعام الطعام، وإفشاء السلام، أى معاملة الناس بمكارم الأخلاق، وغير ذلك .

ومن ذلك قوله - تعالى- ﴿**وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ**﴾.

وكما هو حال كثير من الناس فى الاستغفار كذلك فى الشكر والشكر الذى يحقق زيادة النعم هو الشكر بالفعال، لا بالأقوال قال ربنا - تعالى- ﴿**اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**﴾.

www.ibtesama.com

فكم من القضايا التى يظنها كثير من الناس من وادى الأحلام يمكن أن تتحقق بسهولة، فما يتصل بالناس ممكن إذا صحت النيات وصدق العزم على تغيير السلوك وسئ الموروث من العادات والثقافات، وما يتصل بالمولى رب الناس. - سبحانه وتعالى - أيسر من ذلك لو فقهنا ديننا، وعملنا بمقتضى إيماننا، فرحمة الله قريب من المحسنين .

وإنى لأرجو أن يتقبله الله عز وجل عملاً صالحاً وأن ينفع به عباده، إنه ولى ذلك والقادر عليه وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، وصلى الله وسلم على خير من صلى وصام وعاش الحياة سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين،

أ. د. مبروك عطية

الأستاذ فى جامعة الأزهر

www.ibtesama.com

الفصل الأول

أحلام يسيرة دونها أهوال

من النفس البشرية

www.ibtesama.com

أحلام يسيرة دونها أهوال

اسمه على طرف لسانى... اللهم صل على النبى.. فلان لا، علان لا، عبد الله.. لا، عبد الودود... لا، يظل يقدم "عبد" على جميع ما يحفظ من أسماء الله الحسنى، دون فائدة.. عبدالصبور... عبد الصمد... عبد الأحد... عبد الواحد... عبد القادر، ما اسم الشارع؟ إنه ... أعوذ بالله.. كنت أحفظه... الشارع الذى به محل كذا، وكانت تسكن فيه عمتى،... إنه شارع يسير اسمه... أعوذ بالله.

ويظل يذكر المبلغ الذى أدان به صاحبه أو استدان منه، فلا يستطيع كذلك...

حلم يسير أن نذكر الأشياء، ولكن دون هذا العلم اليسير. أهوال، أهمها النسيان، وانشغال الفكر بالخطب الجلل إن لم يكن المرء نسياناً بطبعه، أو مريضاً بمرض النسيان من أجل ذلك أمرنا بالكتابة، نزل الوحى من السماء، نزل به الروح الأمين على قلب سيدنا رسول الله -ﷺ- ليكون من المنذرين. بلسان عربى مبين، وكان للوحى كتاب يكتبونه منهم زيد بن ثابت-رضي الله عنه- الذى جمع المصحف إثر موقعة اليمامة التى قتل فيها الكثير من حفظة القرآن الكريم، وكانت فكرة عمر -رضي الله عنه- عرضها على الخليفة أبى بكر -رضي الله عنه- لأنه يخشى ضياع القرآن الكريم بضياع الحفظة، وشرح الله صدر زيد لما شرح له صدريهما، فكان أول جمع للقرآن الكريم وكان تدوين السنة كذلك فى عهده -ﷺ- فهو يقول الحق فى الرضا والغضب، وكانت كتابة الدين ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ**﴾ ومن أجل سرعة نسيان المرأة لانشغالها بما لا يحصى من صغائر الأشياء قال الله

www.ibtesama.com

-تعالى-: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى﴾.

وقد يؤدى الخطب الجلل إلى نسيان ما لا ينسى؛ كما كان من أم المؤمنين عائشة -رضى الله عنها- حين نسيت فى حادثة الإفك اسم يعقوب -عليه السلام- فقالت: لا أجد ما أقوله لكم إلا قول أبى يوسف: "فصبر جميل".

وما أكثر الخطوب فى زماننا التى تنسى الناس ما لا ينسى وقد قال الله - عز وجل- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ. يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ واليوم تذهل لما نابها من ظلم وفساد وتذهل لما شغلت به من مشاهدة الأفلام والمباريات، وطفلها يصرخ فى غرفتها. وهى فى ذهول عنه من كيد الذين كادوا لهذا الدين، فضيعوا معانيه، ويحدثوا فجوة بين الناس وبين الإحساس بتلك المعانى، إذ المتصور أن الناس حينما يسمعون قول الله - تعالى-: "﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ يشعرون بهول ذلك اليوم العظيم: لأن فيه أموراً غير معهودة لديهم فى حياتهم الدنيا، ومن هذه الأمور ألا تذهل المرضعة عما أرضعت، بحال من الأحوال، فإذا كان ذهولها اليوم قد صار معهوداً فكيف يعد من أهوال يوم القيامة !

وذلك يحتاج إلى بحث مستقل، وعمل بتمامه نسأل الله أن يتمه.

لأن الحاجة إليه شديدة، ومن الناس من إذا قلت له: اكتب أجابك بقوله: أنا عقلى دفتر، أو قال لك: كتبت هنا، ويشير إلى رأسه، يدفع به الغرور إلى عدم الكتابة، فإذا اعتراه النسيان قال لمن لامه: جل من لا ينسى، فهل كانت هذه العبارة غائبة حين قيل له: اكتب!

www.ibtesama.com

ما كان أيسر أن يكتب، ويحفظ ما كتبه، فلا يضيعه وهو بلا شك فى حاجة إليه، ولله در القائل .

العلم صيد والكتابة قيده ... فاحفظ صيودك بالحبال الواثقة

أى احفظ صيدك الذى هو العلم بالكتابة، والقرآن الكريم من أسمائه الكتاب، وهو فى كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون ما كان أيسرَ أنْ نكتب، وما كانَ أيسرَ أنْ تستذكر، والله عز وجل يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾، وكثرة الذكر علاج للغفلة والنسيان، وقد حث النبى -ﷺ- المسلمين على مداومة اللهو بالقرآن الكريم؛ لأنه سريع التفلت، وعد نسيان المرء آيات كان يحفظها من الذنوب، حتى يتوب المرء، فيعود إلى قراءة ما كان يحفظ ليستعيد حفظه، فيتعبد به ربه، ويتدبر ما يتلو فإذا به يجدد عهده ويذكر ما نسيه، ويغير من سلوكه ليكون وفق ما نزل به الذكر الحكيم، وما أيسر أن يكون للمرء عهد كل يوم بكتاب الله – عز وجل، ولكن دون ذلك أهوال من انشغاله بما يستحق ولا يستحق.

أحلام يسيرة دونها أهوال

ما كان أيسر عليه أن ينتظر قليلاً حتى تهدأ سخونة الشاى فى كوبه، ثم يشربه بالهناء والشفاء، لكنه ركب رأسه وضرب زوجته، وأغضبها، وأقسم بالله تعالى ثم بالطلاق ألا تبيت ليلتها إلا عند أهلها، هاج وماج، وثار، وارغى وأزبد، حيث كانت عادته أن تأتيه زوجته بكوب الشاى وبكوب أخر فارغ، يضع فيه الشاى يبرده، فيوسخ بذلك كوبين، الأصلى المملوء بالتفل، والفرعى الذى يصب فيه الشاى وكانت امرأته هذه المرة على عجل حيث إن لها رضيعاً يصرخ بغرفة نومها، فقدمت إليه كوب الشاى الساخن دون

www.ibtesama.com

أن تأتيه بالآخر الفارغ، وهرعت إلى رضيعها تغيثه، وترحمه من صراخه الشديد الذى يكاد يقضى عليه، وتضمه إلى صدرها، وترضعه، وحين قالت إننى معذورة، والطفل يحتاج إلى من يرحمه، قال: فى ستين ألف داهية، الولد ومن خلف الولد، وحين قالت: ما كان صعباً عليك أن تقوم من الصالة إلى المطبخ لتأتى لنفسك بكوب فارغ أخذ يضرب كفاً بكف، ويقول: أنا أقوم! أنا أحضر لنفسى كوباً فارغاً، وما الداعى إلى وجودك فى البيت إذا كنت أنا سوف أقوم من الصالة إلى المطبخ لأحضر لنفسى كوباً فارغاً .

ولا شك أن مثل هذا الرجل قد سمع مئات المرات فى خطب الجمعة، وفى الأحاديث النبوية، والتى تذكر عند المناسبات أن أم المؤمنين عائشة – رضى الله عنها- سئلت: كيف كان رسول الله -ﷺ- فى بيته؛ فأجابت: كان فى خدمة أهله، أى أنه -ﷺ- كان يحلب شاته، ويرقع ثوبه ويخصف نعله، وهو سيد الرجال -ﷺ- ولا شك أن مثل هذا الرجل يدعى أنه يحب رسول الله -ﷺ-.

ودعوى الحب شأنها شأن كل دعوى، تحتاج إلى دليل، والدليل على صدق تلك الدعوى الاتباع، فهلا اتبع مثل هذا الرجل سيدنا رسول الله -ﷺ- فخدم نفسه بنفسه خصوصاً عند انشغال امرأته بصغيرها ورضيعها الذى هو ابنه أيضاً!

ما كان أيسر كما ذكرت أن يصبر قليلاً حتى تهدأ سخونة شايه، وما كان أيسر كذلك عليه أن ينتقل من الصالة إلى المطبخ، ولن يكلفه ذلك خطوات، لكن دون أهوال من سوء العادات والطباع.

وأعرف كذلك أستاذاً جامعياً أشرف على رسالة ماجستير، إثر سفر مشرفها الأول، وكانت قد تمت، ونضجت، لكن قدر الطالب أن

www.ibtesama.com

سافر مشرفه فجأة إلى إحدى دول الخليج قبل أن يأذن له بطباعتها واقتضت اللوائح أن يحول الإشراف عليه إلى أستاذ آخر؛ فأتاه بالرسالة إلى الكلية، وكان هذا الأستاذ يسكن فى قرية بعيدة عن القاهرة؛ ويأتى فى يومين إلى الكلية بالقاهرة بسيارته الجميلة، فقال للطالب: ما هذا؟ قال: الرسالة يا أستاذ، وإن كنت قد شقيت بسبب سفر أستاذى فلان فقد أسعدنى الله بأن تكمل فضيلتك المسيرة، وأن أفيد من ملحوظاتك القيمة، فأكون قد جمعت بين مدرستين عظيمتين فى الفكر وأسلوب البحث العلمى؛ فقال الأستاذ: اكتب عندك هذا العنوان. وائتنى بها فى قريتى، فلبى الطالب أستاذه، وكتب العنوان، وسافر من غده إلى القرية البعيدة وهو فقير، وكان متزوجاً ويعول أطفالاً، وما كان أيسر أن يأخذها الأستاذ بيمينه، ويضعها فى رسالته، ويرحم تلميذه من وعثاء السفر، وتكاليفه، لكن دون ذلك أهوال من سوء الطباع، والغرور، الذى يسيطر على عقول بعض الأساتذة الذين يرون فى هذا السلوك الطيب انتقاماً لقدرهم العالى، ومنصبهم الرفيع، وجاههم العظيم، فأين التواضع الذى هو من صفات المسلم، وأسوته فيه رسول الله -ﷺ- الذى كان مثالاً فيه وقد روى ابن ماجة فى سننه أنه -ﷺ- حمل قمصانه من السوق إلى بيته، وقد عرض عليه أكثر من واحد أن يحملها، لكنه قال: صاحب الشىء أولى بحمله .

أحلام يسيرة لكن دونها أهوال

أن يقول لمن أخطأ فى حقه، أو نال من شرفه: آسف- أمر يسير جداً، لكن دونه أهوال من قسوة القلب، وفاسد العادات، حيث يظن كثير من الناس أن الاعتذار انكسار، وأنه لا يعتذر أبداً لأحد،

www.ibtesama.com

كهذا الذى يقول لك، ويسمع الدنيا معك: أنا لا أخاف إلا من الذى خلقنى، ويبدو- والله أعلم- أن الذى يقول هذه العبارة إما جاهل، وإما قاسى القلب، لا يخاف الذى خلقه؛ لأن الذى خلقه ذكر أموراً هى مظنة الخوف عند عباده، فكيف يقول عباده: نحن لا نخاف شيئاً، ولا أحداً إلا الله، ومن هذه الأمور خوف الرجل نشوز امرأته، وخوف المرأة نشوز زوجها، قال الله - عز وجل-: ﴿وَاللاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ﴾.

وقال سبحانه: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾.

ومما يتعلق بالأسرة كذلك قول الله- سبحانه- ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا﴾.

وكثيراً من الناس لا يخافون نشوز أحد، ألا ترى إلى قول الرجل فى نشوز امرأته: تدق الجدار برأسها، وتشرب من البحر، وتعمل ما تريده، ويطلق، أو يمسك على ضرر، وكذلك قول المرأة فى نشوز زوجها: يذهب فى ستين ألف داهية .

ومن هذه الأمور التى هى مظنة الخوف المعتبر خوف الفقر، ألا ترى إلى قوله - عز وجل- فى آية التوبة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

وخوف الفقر معتبر شرعاً، وعلاجه أن يعمل، فيأكل ويتصدق، كما قال -ﷺ-، ولا يتخذ من الحرام سبيلاً إلى ذلك، فالله خير الرازقين، ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾، وكذلك الاعتدال فى الإنفاق .

www.ibtesama.com

ومن تلك الأمور التى هى مظنة الخوف المعتبر شرعاً الخوف على الذرية الضعيفة، وأمن الخوف فى هذه المسألة تقوى الله -عز وجل- قال ربنا - تعالى-: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾.

إلى غير ذلك من الأمور التى جمعتها فى كتابى (بيئة القرآن الكريم).

والخوف من الله - عز وجل- يقتضى الخوف مما خوف منه- عز وجل-.

وفى هذه المسألة بالذات نرى الذى لا يعتذر لا يخاف حتى امتداد الخصومة، وهى لا تحل فوق ثلاث كما قال النبى-ﷺ- حتى فى الأسرة الواحدة، تجد خصومة ممتدة بين الزوجين لسنوات قالت لى إحدى الفضليات إنها منذ عشرين سنة تنام فى حجرة، وينام زوجها فى حجرة أخرى، لا كلام بينهما، ولا دفء ولا مودة، وأنه ينفق على ضعف على ابنته الصغرى الباقية بعد زواج البنين والبنات، أما هى فلا ينفق عليها، وهى فى غنى عن نفقته، وحين قلت لها: إن هذه حياة بعيدة عن منهج الإسلام الذى يقول فيها ربنا - تعالى- ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ قالت: إن أهلى يزوجون ولا يطلقون، وكذلك من أجل الأولاد .

وهناك خصومات بين الأخ وأخيه الشقيق، وبين الزميل وزميله، وبين الجار وجاره، وغيرهم، وكان بالإمكان أن تذهب تلك الخصومات بكلمة "آسف" إن لم يكن هناك حق مادى يجب أداؤه، ولكن دون ذلك أهوال من فساد الطباع، ومن شح النفس نعم يجب أداء الحق المادى الذى على أحد الأطراف، حتى يكون الصلح متيناً، بعكس ما عليه كثير من الناس الذين يريدون

www.ibtesama.com

صلحاً صورياً، تقبل فيه الرءوس، ويتحدث فيه المصلحون بنحو قولهم: الصلح خير، والكبير فى مقام الوالد، وللوالد احترامه، ونحو ذلك من العبارات الملطفة للهيب، حتى يتم ذلك الصلح الصورى، وينفض الجمع، ويبقى اللهيب تحت الرماد ولأول ملابسة يعود جمراً حارقاً، وكأنا ما اصطلحنا بالأمس، وما كان أيسر أن تدفع الحقوق إلى أصحابها ولكن دون ذلك أهوال من شح النفس،

أحلام يسيرة دونها أهوال

من قال بأن الزواج أمر عسير، يتطلب شبكة، ومؤخر صداق كبيراً، وأطقماً، ومفارش، وحجرات، وقاعات، وغيرها من الأمور التى تكاد تصل إلى حد الإعجاز، وقد قال لنا نبى الهدى -ﷺ- "التمس ولو خاتماً من حديد" وقال للرجل الذى لم يجد صداقاً، زوجتك إياها بما معك من القرآن الكريم، وقد قال عليه الصلاة والسلام لربيعة بن كعب خادمه: ألا تتزوج يا ربيع؛ فقال يا رسول الله، ليس عندى ما أعطى المرأة، فمنحه رسول الله -ﷺ- ذهباً قدمه صدقاً، وسأل أصحابه أن يعينوه، فأولم وتزوج، وكان زواجاً ناجحاً، وزوج سعيد بن المسيب نجم التابعين ابنته الحسيبة النسيبة بدرهمين، وكان زواجاً موفقاً والنماذج على ذلك أكثر من أن تحصى؛ فالأصل فى الزواج وفى غيره التيسير، وما خير رسول الله -ﷺ- بين أمرين إلا اختار أيسرهما، وفى الحديث: "أكثر النساء بركة أيسرهما مهراً".

وقد تزوج عبد الرحمن بن عوف -رضي الله عنه- بوزن نواة ذهباً، وصار من بعد صاحب ملايين، وقد عشنا زماناً وجدنا فيه كبار العائلات بدأت الأسرة بحجرة وفرش يسير، ولم تكن عندهم من

www.ibtesama.com

ثلاجة ولا غسالة ولا بوتاجاز، وفتح الله، فسكنوا القصور، وتوفرت هذه الأجهزة وغيرها، وهناك فكرة مهجورة وهى أن الحياة القائمة على تطور وتدرج تكون اللذة فيها أشد؛ لما فيها من تكرار اللذة، وذلك لأن المرء إذا انتقل من غرفة إلى غرفتين فرح بتلك النقلة، فإذا انتقل من الغرفتين إلى الثلاث فرح مرة أخرى وهكذا، وكان الناس من قديم إذا اشتروا ثلاجة طبخوا الأرز باللبن فرحة وابتهاجاً، ووزعوا على الجيران، وزارهم الناس مهنئين، وداعين الله بالبركة، وأن ييسر لهم الأمر حتى يرزقهم الغسالة كما رزقهم الثلاجة، ووضع من لا ثلاجة عنده بعض ما يحتاج إليها عندهم؛ فإذا هم يؤجرون على هذا الماعون ويشربون الماء البارد، وينعمون، وقد روى عن ابن عباس- رضى الله عنهما- أنه فسر النعيم فى قوله - تعالى-: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾. بأنه شربة الماء البارد، فإذا جاءت الغسالة ارتفعت الأكف إلى الله - تعالى - تضرعاً وشكراً، وانفرجت الأسارير، وكانت البهجة، والسعادة، وهكذا، وكانت الزوجة أحياناً تناشد زوجها أن يبدأ بالغسالة؛ لأن بظهرها آلاماً، لا تقوى على هذا الغسيل الكثير، أما الثلاجة فيمكن تأجيلها إلى حين ميسرة، متعة، وحوار، ورجاء، وعمل وتطلع إلى رحمة الله الواسعة.

أما إذا بدأ البيت بكامل أدواته فلا شك أن هذا من فضل الله -تعالى- وواسع رحمته، للقادر عليه أما غير القادر فبوسعه أن يبدأ بما تيسر، وتأتى الأشياء جميعها تترى، وييسر الله دون جفاف ريق، وطويل انتظار، وعذاب، وعزوف أحياناً عن الزواج المرهق الذى الأصل فيه التيسير، ولكن دون هذا التيسير أهوال من محاكاة الناس، والإصرار على تمام كل شىء وكماله، ولن تكمل الدنيا بحال، مهما وفرنا وجمعنا، وحرصنا على هذا التمام

www.ibtesama.com

الذى لم يكن سبباً جوهرياً فى استقرار الحياة واستمرارها، بل رأينا كثيراً من أولئك الذين تزوجوا على التمام والكمال طلقوا بعد أيام معدودة من هذا الزواج، فأين البركة؟ وأين الاستقرار؟ وأين الاستمرار؟

ما أيسر ذلك الحلم الذى دونه أهوال من سوء العادات، والدين منه براء، فإن الدين كله يسر، ليس فقط فى مجال العبادات، حيث لم نفقه يسره إلا فيها، وإنما أيضاً فى مجال المعاملات، نعم نحن لا نحفظ من يسر الدين إلا مجال العبادات، بأن نقول: من يسر الدين أن الذى لا يستطيع أن يصلى قائماً صلى قاعداً، ومن لم يستطع أن يصلى قاعداً صلى مضطجعاً، ومن لم يستطع الصوم أفطر، فإن كان مريضاً أو على سفر، ومن لم يستطع الحج فلا حج عليه؛ لقول الله- تعالى-: ﴿**وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً**﴾ وهكذا، أما فى مجال المعاملات فقل من اهتم بيسر الدين، ومن العجب أن الذين يحفظون منهج اليسر فى العبادات ويأخذون به لا ييسرون على الناس فى المعاملة مع أن العبادة مشروعة من أجل تهذيب السلوك، والتراحم بين الناس، ومن ذلك تيسير الزواج الذى صار شبه مستحيل لكثير من الشباب بسبب أهوال العادات لا بسبب شريعة الله المبنية على التيسير .

أحلام يسيرة دونها أهوال

عاش عمراً غير قصير يحلم حلماً يسيراً، ولكن دونه الأهوال، وما أكثر الذين يحلمون تلك الأحلام اليسيرة، التى دونها مفاوز تقطع ظهر البعير كما قال عبد الله بن المبارك - رحمه الله-، وتلك الأحلام خلاصتها أن يقضى المرء مع أحبته وأرحامه، بل مع زوجته وأولاده وقتاً بلا مشكلات، وقضايا، وشكاية، وعتاب،

www.ibtesama.com

وجراح، ومطالب فقط يقضى معهم ذلك الوقت بلا هم ولا غم، يستمتع بهم ويستمتعون به، وإن كان بينهم كلام كان فى ذكرى عطرة طيبة، تبعث من الماضى أريجه ورحيقه، وتبث فى روح الحاضر الذى هو بلا شك مؤلم، تبث فيه شيئاً من الأمل، والتفاؤل، يأكلون معاً لقمة بلا نكد ويشربون معاً شراباً بلا كدر، يقول أحد الرجال: تزوجت منذ أكثر من أربعين سنة، وما زال هذا الحلم دونه أهوال، ما دخلت على زوجتى ذات مرة إلا واجهتنى بما كان، وبما هو كائن، وبما سوف يكون من سوء، إلى درجة أننى طالما رجوتها أن تترك لى فرصة التقاء أنفاسى من صعود السلم ومنذ عشرين سنة تقريباً نصح لى زميل من الزملاء أن أصحبها فى نزهة صيفية إلى الإسكندرية، فهنالك يكون وقت الاستجمام والراحة، وقد كان، صحبتها، وتكلفت الكثير من المال، ووصلنا إلى الإسكندرية، وأول شىء قالته زوجتى عندما دخلنا الشقة التى استأجرتها من أجل قضاء أسبوعين فى إجازة: أهذه شقة؟ بكم استأجرتها؟ تراهم ضحكوا عليك، إنها لا تساوى أكثر من مائة جنيه فى الشهر، دهانها باهت، وفرشها بال، وأخذت تتفقدها وتنتقد جميع ما فيها، وقالت: أنا الآن أحمد الله على شقتنا بالقاهرة، إنها قصر، وليست مثل هذه، إن هذه مقبرة، ولا روح فيها، فذكرتها بالذى قالت فى شقتنا التى فى القاهرة: فقد أطلقت عليها أيضاً اللفظ نفسه "مقبرة" فقالت: نعم مقبرة، ولكن بالنسبة إلى هذه قصر، فقلت الحمد لله.

وكنت فى حاجة إلى أن أنام قليلاً من وعثاء السفر، ومشقة الطريق، وما إن وضعت جنبى على السرير حتى نادتنى – الحق الحق– فيه صراصير.. يا خرابى.. يا وكستى قلت أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ولا يوجد مكان فى الأرض ليس فيه صراصير، استهدى بالله، واهدئى، فصرخت وهذا برص، وظلت تنادى حتى

www.ibtesama.com

قمت، وقلت لها: أين الصراصير وأين الأبـــراص، قالـــت: نزلـــت الصراصير فى البالوعة، وفر البرص، قلت: وفر النوم من عينـــى والحمد لله على كل حال، ماذا تريدين؟ قالت: أريد الفرار من هنا!

قلت : إلى أين؟

قالت: لا أدرى، ابحث لنا عن شقة أخرى تليق بنا .

قلت : ومن أين آتى بها؟

قالت: لا أدرى، تصرف .

قلت : كيف أتصرف، ونحن فى الصيف، ولا يوجد ثقب إبرة فـــى الإسكندرية !

قالت: إذاً نعود إلى القاهرة .

قلت : هلا كان ذلك غداً!

قالت: أبداً، الآن، فلن أستطيع المبيت هنا ليلة، بـــل ولا ســـاعة واحدة.

واضطررت بعد شجار طويل أن أترك الإسكندرية، وأعود إلى القاهرة وظللت وأنا فى الطريق أحلم بالعودة إلى القاهرة كى أنـــام ساعة. قلت: لقد تركت المقبرة كما قالت زوجتى وعدت إلى القصر كما قالت أيضاً، لكن هذا الحلم لم يتحقق، حيث إنها أول ما وصلنا تزهقت، وقالت: أعوذ بالله من تلك المقبرة التى كنا فيها قلت لها: ألم نطو صفحتها، وعدنا، قالت: لكن رائحتها الكريهة ما زالت فى أنفى، قلت: وماذا أفعل، هل أترك هذا القصر وأبحث عـــن مكـــان وليكن فندقاً كيما أستريح من وعثاء السفر؛ فصاحت كالمجنونـــة: أنت لا تريد العيش هنا، أفصح عما فى داخلك وقلهـــا بـــصراحة، وقلت: ناشدتك الله، ارحمينى يرحمك الله، مـــا أريـــد إلا أن أنـــام ساعة، وهكذا ظل حلمى اليسير دونه أهوال .

www.ibtesama.com

أحلام يسيرة دونها أهوال

فقد اللغة:

أقسم لى بالله أنه حين سافر إلى بلد كان يتمنى أن يسافر إليه شعر بأنه معدوم بلا وجود، وجثة بلا روح، حيث وقف أمام بائع وهو عاجز عن خطابه بالإنجليزية، حلم يسير أن يسأله عن شىء يريده، وأن يستفسر منه عن ثمنه، وأن يأخذ بغيته، ويشكره، ويمضى، قال: ولولا أن فلاناً كان معنا فى الرحلة لما شعرنا بشىء من حياة فى تلك البلد، فقد كان ماهراً بالإنجليزية، وكنا نعول عليه تماماً، ونرهقه خصوصاً إذا أراد أحدنا أن ينزل ولم يرد الآخرون، فهذا الراغب فى النزول يقول له: هيا، وعند عودته يكون غيره راغباً فى النزول فيقول له: هيا، وهكذا، حتى أتعبنا الرجل، وأرهقناه، وأجره على الله، وقد أسر إلى بعض الرفاق بأنه لم يكن راغباً فى صحبة هذا الرجل، وبمجرد أن صارحنا بتلك الرغبة كدنا نقوم عليه نضربه بالنعال، فماذا كنا فاعلين لو تخلف عنا هذا الرجل، ولم يكن معنا، كنا سنصير مثل العمى الصم البكم وإن كنا نسمع ونتكلم وقد أكرمنا الله- عز وجل- بصحبته، ورحمنا به، وظللت من بعد ذلك أحفظ له الود، وأذكره بفضله علينا، وما أسداه إلينا من معروف كبير، لا ينكر، وهو ينكر فيشكر بلا شك وقد قال لى رجل طيب عاش مدة غير قصيرة فى بلد أوربى، وذات يوم قال لرجل دون أن يدرى: السلام عليكم، فرد عليه الرجل قائلاً: وعليكم السلام ورحمة الله باللغة العربية، قال فأمسكت به، وأنا بين الحقيقة والوهم، ووالله كنت إلى الوهم أقرب، وقلت له: هل رددت على السلام بالعربية فقال: نعم، فأخذته فى حضنى، وكأنه حبيبى الذى افتقدته منذ زمان ولا أدرى له من عنوان، وفجأة دق بابى، ودخل معتذراً إلى عن طول غيابه، وعدم اهتمامه وسؤاله، فغفرت

www.ibtesama.com

ذلك كله ورحمته وتناسيت كل شيء كان، كأنى وجدت وطنى وكنت أهيم على وجهى، لا أدرى أى الجهات أسلكها إليه، ولا أى الدواب أمتطيها: لتحملنى إليه، ومع هذا الشعور وغيره أجدنى عاجزاً عن التعبير عن شدة فرحتى به، وسعادتى بلقائه، وسألته عن وطنه الأصيل فأخبرنى أنه من فلسطين، قلت له: وأنا أيضاً من فلسطين، أنا من البلد الذى تنتمى إليه وبروحى أفتديه، فقد انتشلتنى من وهدة هابطة إلى قمة عالية، انتشلتنى من العدم إلى الوجود، ومن الموت إلى الحياة، أين كنت يا رجل، لقد تعذبت طويلاً مذ غبت عنى، وشعرت بسعادة غامرة فى عينى الرجل، وكأن قد قدر ما أنا فيه، وعرف ما أعانيه، ساعتها أدركت أننى به قد صرت إنساناً، تحدثت إليه فى القضية الفلسطينية، وظلم الصهاينة، ونوم العرب، وكأننى رجل سياسة من الطراز الأول، مع أننى لم أشتغل بالسياسة يوماً، ولم أكن حتى مشغولاً بها، وحدثته عن سبب سفرى، وعناء حالى فى يقظتى ومنامى، وعن الطعام خصوصاً الملوخية المصرية، ومحشى الكرنب وورق العنب والفلفل والطاطم، والبيض، فاندهش، وقال: كل هذه المحاشى معروفة لدى، إلا البيض، فشرحته له وكأننى طباخ، بأن يسلق قليلاً، ويفرغ منه الصفار، ثم يحشى، وأخذنا نضحك معاً، وبدون أن أدرى وجدت ذراعى تتسابق إلى ذراعه، وفجأة توقفت، واعتذرت له، فقد أكون قد عطلته، وأعطانى الرجل عنوانه، وأخذ منى عنوانى، وتبادلنا الزيارات وأعاننى باللغة على كثير من الأمور.

وقد ثبت أن النبى -ﷺ- أمر زيد بن ثابت-رضي الله عنه- أن يتعلم لغة يهود، فتعلمها فى خمسة عشر يوماً وتعلم غيرها كذلك مثل الحبشية من خدم رسول الله -ﷺ- وتعلم اللغات مهم جداً فى حياتنا اليومية بعد أن صار العالم كله بمثابة قرية صغيرة كما

www.ibtesama.com

يقال، وقد صارت العولمة واقعاً لا مفر منه، وقد صارت التقنيات بلغات صانعيها، ولابد من التعامل معها بعد أن نمنا قروناً طويلة وتخلفنا عن ركابها، وصرنا لها مستهلكين لا منتجين، ناهيك بالطب الذى ليس لأحد من الناس غنى عنه، وغيره، وقد يقف أحد من أهل المرضى حائراً أمام صيدلية لأنه لا يذكر اسم الدواء الذى يحتاج إليه المريض، لأنه ليس بالعربية، أرأيت كيف أن هذا حلم. يسير، دونه أهوال .

أحلام يسيرة دونها أهوال

فقد العلم:

وفقد العلم من باب فقد التعارف، والعلم بالشىء، أفضل بكثير من الجهل به بما لا يحصى من الأعداد، والتقديرات، ومن قديم قال الناس: العلم بالشىء، ولا الجهل به، ولا أعنى هنا العلم الذى هو قواعد بأصول، من العلوم الطبيعية، والإنسانية، وغيرها وإنما العلم الذى أعرض له هنا هو العلم العام، الذى ينبغى أن يلم به كل إنسان؛ لكى يصلح من شأن نفسه، ومن حاجات بيته، كالعلم مثلاً بالإسعافات الأولية التى يحتاج إليها جريح أو مريض، قبل أن ينقل إلى المستشفى أو إلى طبيب مختص، فبعض الناس لا علم له بها، وهى يسيرة لكن دونها أهوال، هى الجهل، وفقد العلم، ولا شك أن امرأة تعرف كيفية التعامل مع زوجها مريض السكر تختلف عن أخرى جاهلة، يطيب لها أن تقدم له الشاى بسكر زائد، وكذا القهوة، وتغرقه كل يوم بصنوف المحاشى، والنشويات، وغايتها أن تسعده، وتملأ معدته ولو على حساب صحته، وما يمكن أن يعتريه من مضاعفات، منها غيبوبة السكر، وما ينتج عن ارتفاعه من كوارث، أما الأولى فهى تعلم مثلاً أن مريض السكر لا بأس أن يأكل كل شىء، ولكن بكميات قليلة، فهى تحسب الحساب، وتعرف

www.ibtesama.com

ما يجب أن يقدم له، وتتصانع معه بلطف حتى يقبل ذلك ويتعوده، ويسلم هو، ومن ثم تسلم أسرته، وهذه ملحوظة مهمة، وتنبيه واجب فإن التى تعلم ما يجب أن يقدم لزوجها؛ فتقدمه له بأسلوب جاف، إنما تسئ من حيث أرادت الإحسان، وقد يؤدى هذا السلوك السئ منها إلى عنف منه، وعناد كبير، فلابد مع العلم من حسن سلوك، وحسن تصرف مع المريض الذى هو فى حاجة إلى رحمة ومودة مع العلم .

ومن ذلك أن يكون المرء على علم بما يصلح أدوات بيته، ألا ترى أن صنبور ماء قد يتساقط منه الماء قطرة قطرة تبدو كأنها صوت صاعقة خصوصاً بالليل الذى تسكن فيه فى الغالب الأصوات، ومن اليسير أن يوضع له قلب فى أقل من خمس دقائق، لكن هذا العلم اليسير دونه أهوال هى فقد العلم والمعرفة بفك الصنبور، وتركيب قلب له، لابد من استدعاء سباك، وقد يكون مشغولاً على عادته، أو لا يرد على هاتفه إن وجد معنا هاتفه، أو غير ذلك، فيستمر الأذى فضلاً عن الإسراف فى الماء وهو حرام بلا خلاف .

ماذا لو على رب البيت لو تعلم كيف يصلح من أدوات بيته الضرورية، مثل بعض أعمال السباكة، وتسليك مصارفه، وتنظيفها، وغير ذلك، ومنه بعض العلم بالكهرباء والتوصيلات، وقد تكون أموراً سهلة، لكنها قد تؤدى إلى فساد كبير، إذا أهملت، وانتظر أهل البيت السيد الأستاذ الكهربائى، الذى يجعل مثل غيره من أصحاب الصنائع من الحبة قبة .

وكثير من الناس يقودون سياراتهم، ولا علم لهم بشىء مما يصلحها إذا تعطلت، يقول لى أحد الثقات إنه خرج يوماً بسيارته، وكان ذلك فى الشتاء، وكان يوماً مطيراً فأعمل المساحتين أمامه،

www.ibtesama.com

ومضى فى نشوة الشاعر أو قلب الشاعر، سعيداً بحبات المطر، والمشى فيه، وفجأة توقفت المساحتان تماماً، وقاد السيارة بصعوبة بالغة، فهو لا يكاد يرى شيئاً أمامه، وبين الدقيقة وأختها يتوقف ويمسح الماء بيديه حتى رأى كهربائى السيارات، فحمد الله تعالى، وعرج عليه، وقال له: إن المساحات لا تعمل؛ فقال له: افتح الكبود، ففتحه، فوضع يده، وفى أقل من دقيقة قال له: شغل المساحات، فشغلها، فتراقصت أمام عينيه، وضحكت الدنيا فى وجهه، وأعطى الكهربائى عشرة جنيهات، وكان لا يريد منه شيئاً، ومضى سعيداً لكنه عاد إليه من جديد، وقال له: أنا أشكرك على ما فعلت، ولكن بالله عليك ماذا فعلت، فقد تصورت أنها قد تتعطل مرة أخرى، وأنا منك بعيد، فماذا أفعل فأراه، وعلمه فى دقيقة، فهل ترى لهذه الدقيقة من ثمن كبير، لو تعلم فيها من قبل لما ذاق الأهوال فى الطريق حين تعطلت!

أحلام يسيرة دونها أهوال (الفقد)

فقد التعارف:

من الأهوال التى تقف دون الأحلام اليسيرة فقد السبيل إليها ومن هذا الفقد: فقد التعارف، تصور رجلين يقف أحدهما إلى جنب الآخر بموقف من مواقف المواصلات العامة، وفجأة تسمع صوت منبه سيارة، وقائدها ينادى أحدهما دون الآخر، ويصيح: يا فلان يا أستاذ فلان، أنت يا جدع، فإذا رآه جرى نحوه وبسرعة فتح الباب، وركب، وسلم. وسأله صاحب السيارة إلى أين ينوى أن يذهب، وقد يكون ذاهباً إلى مكان قريب، وقد يكون الذى كان يقف إلى جواره ذاهباً إلى مكان أقرب، فكونه يركب معهما حلم يسير، ولكن دونه أهوال، هى فقد التعارف فلو كان صاحب السيارة يعرفه

www.ibtesama.com

لناداه معه، وتحقق حلمه اليسير ولو كان الذى وقف إلى جنبه يعرفه لناداه كذلك، واستأذن له صاحبه الذى لا يعرفه بأن يركب معهما فأذن له، وتعرف عليه من خلال الذى يعرف، وتحقق الحلم، لكنه لم يتحقق بسبب فقد التعارف، والله عز وجل- يدعو عباده إلى التعارف قال عز وجل: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا**﴾.

وكم جلب التعارف من خيرات، إذا صح، وسلمت معه النية، والتزم المتعارفون بآداب هذا الدين من حرمة الدم والعرض والمال، والاستئذان، وغيرها، إذ إن هذه الآداب بمثابة الحصن المنيع الذى يحمى التعارف، ويصونه من عبث المتعارفين الذين لايلتزمون بتلك الآداب، فبعضهم يعبث بحرمات بعض، وبعضهم يظلم بعضاً، وبعضهم يلعن بعد ذلك السوء اليوم الذى تعرف فيه على هذا الذى ظلمه وانتهك حرمته، واعتدى على حق من حقوقه، وما لهذا شرع التعارف بين الناس، إنما شرع من أجل تحقيق المصالح المشتركة بين الناس، والناس يحتاج بعضهم إلى بعض كما تحتاج أعضاء البدن الواحد بعضها إلى بعض، جاء رجل إلى ابن عباس – رضى الله عنهما- وقال له: ادع الله لى أن يغنينى عن الناس؛ فضحك ابن عباس، وقال: يا هذا، إن الله خلق الناس يحتاج بعضهم إلى بعض كما يحتاج أعضاء الجسم الواحد بعضها إلى بعض، ولكنى أدعو الله لك أن يكفيك شرار الناس.

وقد يتعرف المرء على بعض الناس من أجل مصلحة مشتركة معروفة، مشروعة، وليس شرطاً فى هذا التعارف أن يكونوا سمناً على عسل، وليس من شرطه أن يدخل كل منهم بيت صاحبه، وأن يحدث أولاده خصوصاً النساء، فأنت تتعرف على صاحب البقالة، وعلى الكومسرى وعلى كثير من الناس، وهو

www.ibtesama.com

تعرف محدود، يؤدى غايته من إفشاء السلام، ومعرفة القليل أو الكثير من الطباع، ومد يد العون كما تمدها لكل محتاج، وهؤلاء من باب أولى لكنك إن زرت بعض هؤلاء وهو مريض لا تزوره بين الحين والحين كما تزور أخاك وأرحامك وأصدقاءك المقربين، وهذا لا بأس به، كما أن ولدك طالب العلم يتعرف على كثير من زملائه فى المدرسة أو الجامعة، ولكنه لا يصادق كل من تعرف عليه، ولا يدخل كل زملائه بيته، وإنما يصطفى منهم رفاقاً يثق بهم، ويطمئن إليهم، يزورهم ويزورونه، ويبادلهم حباً بحب، وتواصلاً بتواصل .

وفقد التعارف هو الذى يجعل من لا يعرفك لا يثق بأمانتك مع أنك أمين، فهو يرتاب، ولا يسمح لك بالانصراف من محله إن كان بائعاً إلا إذا سددت ثمن سلعته بخلاف ما لو كان يعرفك، ويثق بك، ساعتها يقول لك: خذ السلعة، وما شئت من مال إن أردت، وسدد فى أى وقت، لكن الذى لا يعرفك لا يثق بأن تأتيه بباقى ثمن السلعة ولو كان زهيداً".

انظر إلى هذا المبلغ الزهيد، وكيف كان أهوالاً تمنعك من مغادرة المكان، فهو حلم يسير، نعم حلم يسير أن تمضى وعليك مائة جنيه مثلاً، لكن دونه أهوال هى أن الرجل لا يعرفك، فلن تمضى حتى تدفعها أو تهاتف أحداً يعرفك كى يأتيه بها، أو تترك السلعة ولتأت فى الوقت الذى تكون فيه جاهزاً بتمام الثمن فلك الخيار فى هذا كله، إلا فى الحلم اليسير، فدونه أهوال، هى أنك غير معروف، فلم لا تتعارف!

أحلام يسيرة دونها أهوال

لم أنس تلك الليلة التى زرت فيها زميلى القديم الأستاذ فاروق أستاذ اللغة العربية بمدرسة حلمية الزيتون الثانوية للبنات

www.ibtesama.com

فى منزله بعد أن عاد من بعثته إلى بلد من بلاد أوربا، وقد أصيب هنالك بجلطة فى المخ، وعافاه الله منها، ليلتها التقينا، واستعدنا بعض ذكرياتنا، وقال لى دون أن أسأله عن ظروف الجلطة: أتدرى لم أصابتنى تلك الجلطة؟ إنها أصابتنى من شدة الفرح، ولعلك لاتصدق؛ حيث جرت العادة أن المصاب بالجلطات دائماً يكون الحزن والهم سببها، وأنا على عكس ذلك فإن مخى لم يتحمل الفرحة، كنت يا سيدى أسير فى أحد الشوارع، وهى على ما تسمع نظيفة جداً هنالك إلى درجة أنى كنت أقول: إنها تلحس بالألسن، ولا تنظف بالأدوات التقليدية المعروفة من شدة نظافتها ولمعانها ولمحت وريقة صغيرة إلى جانب الرصيف، فعز على أن أتركها، فانحنيت، والتقطها، ووضعتها فى أحد صناديق القمامة، وفجأة وجدت سيارة شرطة تدنو منى وتتوقف، ويسألنى ضابط عن هويتى واسمى ومكان عملى، فسألته عن سبب ذلك، وهل أخطأت، أو ارتبكت شيئاً مشيناً، فأخبرنى بأنى قمت بعمل عظيم رصدت القوانين عليه مكافأة سخية، وسوف تصلنى إلى مكان عملى، ووصلتنى، لم أكن أدرى أننى قمت بعمل عظيم إذ رفعت ورقة من فوق الأرض ووضعتها، فى المكان الذى يجب أن توضع فيه إلا عند سيدنا محمد -ﷺ-القائل: إن رجلاً وجد شوكة فى الطريق فقال: هذه تؤذى الناس، فنحاها جانباً، فنظر الله له، فشكر الله، وغفر له، وأدخله الجنة، أما مثل هذا عند المسلمين فلا يبدو عملاً عظيماً، أفيكون عند غيرهم عملاً عظيماً، ترصد له مكافأة!

لم يتحمل مخى هذا المعنى؛ فأصابتنى جلطة وأخذ الرجل يضحك، وكانت ليلة طيبة، قضيناها فى الحديث عن المفارقة بين العمل والعلم، فنحن نعلم أن النظافة من الإيمان، وأن ديننا دين الطهارة الحسية، والمعنوية معاً، أى طهارة الظاهر من الأبدان،

www.ibtesama.com

والثياب، والأماكن والأوانـــى، والأدوات، وطهـــارة البـــاطن مـــن تخليص القلب من أدران الحقد والحسد، والبغضاء، وغيرها مـــن أمراض القلوب، ومع ذلك لا نقوم بنظافة ظاهر، ولا نحرص على نظافة باطن، وتلك هى المفارقة بين العمل والعلم فالعلم موجـــود، لكن ما أشبهه بالكتاب المهمل، والرسالة الجامعية التـــى تحتـــوى على موضوع عظيم، ووصايا مهمة فيها علاج لكثير مـــن قـــضايا الحياة بشتى مجالاتها .

أو ما يسميه علماء التربية العلم البنكى، الذى يكون حاملـــه بمثابة جهاز التسجيل، تضغط عليه، فتسمع الفرائـــد، والعجائـــب، لكنه لا يتأثر بما فيه، وكذلك كثير من الناس، ألا ترى أننـــا ربمـــا كتبنا هذه العبارة (النظافة من الإيمان) علـــى جـــدار تحتـــه مـــن النفايات والقاذورات ما يشهد بالبون الشاسع بين العلـــم المعلـــق، والواقع البغيض، أى بالمفارقة بين العلم والعمل الأمر الـــذى هـــو سبب تخلفنا عن ركب الأمم، وسوء أحوالنا، وما أصـــاب زميلـــى سببه أن الحلم اليسير الذى دونه أهوال فى بلادنا ليس دونـــه أى هول فى بلاد أوربا وغيرها، وقد أصاب الرجل مـــا أصـــابه لأنـــه عاش عمراً طويلاً يحلم بهذا الذى رآه هناك أن يتحقق هنا، فلمـــا رآه واقعاً هنالك أصابته الدهشة، وتملكه العجب، فأصيب، وعلـــى حد تعبيره لم يتسع مخه للفرحة؛ لأنه لم يفرح يوماً فى بلاده بهذه الروح، روح النظافة، التى هى من الدين بمكان، مـــن أجـــل هـــذا أصيب، والحمد لله الذى عافاه، إن نظافة الأمـــاكن مـــن الأحـــلام اليسيرة ولكنها دونها أهوال من التعود على القاذورات، والأنـــس بها كأنها الأصل وما هى بأصل، ومن اعتاد شيئاً أدمنه؛ وصار له سبيلاً والأمل فى التخلص منه بعيد، حيث إن مـــن مقتـــضياته أن يتعاون عليه الجميع، وأن تدب روحه فى كل حى، ســـاعتها فلـــن تجد قاذورة من القاذورات، وكيف تجدها وقد تنازعتها أيد كثيرة!

www.ibtesama.com

أحلام يسيرة دونها أهوال

ما تمنى شيئاً مثلما تمنى أن يخفض جاره صوت الكاسيت الذى لا يهدأ بليل ولا نهار، كلما دخل بيته شعر بأن هذا الصوت منبعث من داخله، لا من داخل بيت جاره، لا يستطيع أن ينام، ولا أن يكتب ولا أن يقرأ، ولا أن يحدث أحداً من أهله، ولا حتى يخلو إلى نفسه ليفكر فى أمر ما، حتى فى الحمام، متوتر، لا يستطيع أن يقضى حاجته فى هدوء، إنه ينفخ دائماً، ويشهق لظى، وزفيره لهيب دق ذات يوم بابه، وسلم عليه فى أدب جم، واستعطفه وعلم منذ اللحظة الأولى أنه لا فائدة، فقد قال جاره باستخفاف والله أنا لا أراه عالياً يا أخى، ثم إنى أنام عليه وأصحو وكذلك امرأتى، تعود عليه مثلى، فلما قال له: لا بأس أن تسمع نفسك وأهلك، وأرجوك أن ترحمنى رد عليه قائلاً: ركب ببيتك عازل صوت، كل إنسان حر فى بيته. حصلت البركة، ومضى أسفاً، ولم يحقق حلمه اليسير.

ما أسوأ مثل هذه الجيرة، التى غاية ما يكون من ورائها أن يرحم الجار جاره من صوت عال يؤذيه، ويكدر عليه صفوه، وهذا ليس حلماً صعب المنال؛ فإنه لا يسأله ماله، ولا عياله، ولا يريد منه شيئاً فوق طاقته، إنما يريد منه فقط أن يحرك يده الكريمة، يمدها إلى جهازه عالى الصوت، يخفض من علوه، وهو يستطيع مع هذا سماعه بهدوء، كذلك، أى أنه لن يحرم سماعه ولن يحرمه ذاتاً؛ فإن جاره لا يقول له: أعطنى جهازك، أو حطمه، وإنما يرجوه أن يخفض فقط من صوته، فهل هذا مطلب عسير، أو حلم صعب المنال، إنه بلا شك حلم يسير، لكن دونه أهوال من النفس البشرية غير المهذبة، وتهذيب النفوس من مقاصد البعثة النبوية

www.ibtesama.com

الشريفة. وقد تكرر ذلك في الكتاب العزيز، قال الله- تعالى- ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ . فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ﴾. وقال عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾. وليس من تزكية النفوس أن يستمع المرء إلى جهاز تسجيله وغيره بصوت مرتفع ما دام قادراً على سماعه منخفضاً، وليس منها أن يدق باب المرء فإذا بجاره على الباب، يستأذن، ويسلم، ويدخل في أدب جم، ويرجوه شيئاً يسيراً، ويرجعه صغراً، وكان بوسعه أن يلبي له طلبه؛ إذ إن له حقاً عليه، ألا ترى إلى قول النبي-ﷺ-: "ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه".

وليس من تزكية النفوس أن يكون جواب امرئ مسلم خصوصاً الجار: أنا حر؛ فإن الحرية معنى من المعاني المظلومة، فهي تنتهي إذا بدأت حرية الآخرين، نعم أنت حر أن تسمع ما تشاء بهدوء لا يؤذي الآخرين وأنت في هذه الحرية عليك تبعة ما تسمع، بمعنى أنك حر في سماع السوء، وسوف تنال عقاب ذلك، وأنك حر في سماع الطيب، وسوف يجزيك الله خيراً، وقد فهم أناس كثيرون أن قول الله- تعالى- من سورة الكهف: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾. معناه الحرية، لكنه لم يضف هذه العبارة، وذكرها واجب، وهي أنه إذا اختار الإيمان دخل الجنة، وإذا اختار الكفر دخل النار. ومثل ذلك في المعاملة، إن اختار الإحسان إلى جاره فقد دل بذلك الإحسان على إيمانه؛ لقوله-ﷺ- الذي رواه البخاري في صحيحه وغيره "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره" وإن اختار الإساءة فقد عرض نفسه لغضب الله- تعالى- وسخطه، والإحسان من تزكية النفوس، والإساءة من

www.ibtesama.com

نقيض تلك التزكية، أى من توحش لا يعرف صاحبه الأنس، ومن جثارة لا يعرف صاحبها اللين، ومن قساوة لا يعرف صاحبها الرحمة، وفى الحديث الصحيح: "من لا يرحم لا يرحم" وفيه: "الراحمون يرحمهم الرحمن".

أحلام يسيرة دونها أهوال

عند كثير ممن من الله عليهم هناك أهوال دون تحقيق الحلم اليسير من الفواحش، وأكرم بها من أهوال تنجي صاحبها من عذاب أليم، وذلك لقول الله- عز وجل-: **﴿وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾**. الأنعام الآية: ١٥١.

وفى تفصيل ذلك أقول: إن الله- عز وجل- يقول: "ولا تقربوا الزنا" ما فيها نهى عن الزنا، وإنما فيها نهى عن قربه، والنهى عن قرب الزنا أبلغ من النهى عن الزنا؛ لأن النهى عن كربه دليل على اجتنابه بالكلية، لأنه إن لم يقربه ابتداء لم يقربه فلن يصل إليه أبداً، تصور مثلاً أن رجلاً يمشى فى الشارع الذى يسكن فيه صاحب له، يمكن أن يمر عليه، ويمكن أن يمضى دون أن يمر عليه، لكن إذا مشى فى شارع آخر غير الشارع الذى يسكن فيه فهل بقى احتمال مروره بصاحبه! لا شك أن هذا الاحتمال مفقود، فهيهات أن يمر به، وهو غير مار بشارع ليس فيه بيته، وكذلك الذى لا يقرب الزنا، أى لا يخلو بأجنبية، ولا يقبل، ولا يلمس، ولا يحضن، ولا غير ذلك بل لا يخضع بالقول لامرأة، وغير ذلك من الأمور التى تصح أن تكون مقدمات للزنا، وما أكثر هذه المقدمات فى حياة الناس، مع الأسف، وبعض الذين يخوضون فى الدين بغير علم يقولون: إنها جائزة، ولا مشكلة فيها خصوصاً أن الزواج ميسر فى هذا الزمان، والشباب لا يجدون شقاً وغير ذلك

www.ibtesama.com

لا شك أن هذا إلى العبث أقرب منه إلى الجادة والصواب وأنه إلى الفوضى أقرب من إلى النظام لا سيما نظام الدين المستقيم، الذى يقول: "ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن" وقد يتصور إنسان أن مثل هذه المقدمات البغيضة أمور يسيرة أو أحلام يسيرة، لكن دونها أهوال من تقوى الله- عز وجل- لا يقترفها من توغل الإيمان فى قلبه، وملأ نور اليقين به صدره، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾.

وقد ترى الرجل عازفاً عن قرب الفواحش ابتداء، وهو تقى وقد تراه مقبلاً عليها، لكن قبل اقترافه إياها يتذكر من تلقاء نفسه، أو يذكره غيره فإذا هو مبصر، فيتراجع، ولا يفعل القاذورات، ألا ترى إلى قوله- تعالى-: ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾. أى إن كنت تقياً، وسمعت منى "إنى أعوذ بالرحمن منك" ارتدعت، حيث إن لك وازعاً من دينك، ويقظة من ضميرك تجعلك تتراجع عن تحقيق رغبتك.

وتصور أول ما قاله يوسف-عليه السلام- حين راودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك، ماذا قال؟ قال أول ما قال: "معاذ الله" وهكذا ترى عباد الله المتقين المخلصين على لسانهم تلك الاستعاذة الصادقة بالله رب العالمين. الذى أمر بالمعروف ونهى عن المنكر.

ذلك أن تتصور هذه الفكرة فى سياق هذا الموضوع، وهى عزوف الإنسان عن الصغائر، التى يراها محالة، فدونها أهوال من تقواه، كيف بالكبائر والجرائم التى تؤدى إلى فساد كبير فى الأرض، من سفك الدماء، والظلم، وأكل أموال الناس بالباطل وغير ذلك، هل يقبل عليها ذلك الذى يعد الصغائر من وادى المحال، إنه

www.ibtesama.com

بلا شك لا يرتكبها أبداً وبالتالى لك أن تتصور حال أمه، لا أقول كل أفرادها على هذا المستوى، وذلك لأن فى الناس كما قال تعالى الظالم لنفسه، ومنهم المقتصد، ومنهم السابق بالخيرات فلو أن الأمة على هذه الأجزاء الثلاثة لأخذ السابق بالخيرات أخويه فى ركابه، لكن المأساة أن يغلب الظالم على نفسه وأن يسود، وأن يكثر، حتى يقال: كثر الخبث، وفى كثرة الخبث من الخطورة على الناس ما فيهما؛ لحديث أم سلمة- رضى الله عنها- حين قالت للنبى-ﷺ- أو نهلك وفينا الصالحون يا رسول الله! قال: نعم إذا كثر الخبث، فما أجمل أن يرى المسلم صغائر الذنوب مثل الجبال كما قال ابن عباس فوق رأسه، بخلاف المنافق الذى يرى الكبائر كأنها ذباب فوق رأسه، هنالك بلا شك فرق بين الرجلين، كالفرق بين السماء والأرض، وبين الحياة والموت!

أحلام يسيرة دونها أهوال

حلم يسير أن تتحرك خطاك يوم الجمعة، وأن تستمع إلى خطبة مفيدة نافعة؛ لأن الخطيب مؤهل لأداء ذلك، لكن دون ذلك أهوال، سببها أن الخطيب لم يعد تلك الخطبة وبين يديه المراجع والمصادر مطبوعة مزينة مزركشة تسر الناظرين، وأمامه لاب توب، بضربة واحدة على موقع ما يستطيع أن يقرأ الصحيح، وأن يفيد منه، إنه ليس مثل أبى أيوب الأنصارى الذى سافر شهراً على ناقته من أجل أن يسمع حديثاً، ثم رجع، وليس مثل غيره من العلماء الذين سافروا من أجل طلب العلم، وارتحلوا واغتربوا، وعانوا، أو مثل اللغويين الأوائل كسيبويه وشيخه الخليل بن أحمد، وغيرهما، الذين جابوا الصحارى بحثاً عن ذى ثقة يحكى لهم لهجة، صارت اللهجات مدونة والعلوم مكتوبة، وبكل اللغات، والرجوع إليها ميسر لا مشقة فيه، ولكن دون ذلك أهوال الكسل

www.ibtesama.com

والخمول وضعف الهمة، والركون إلى مشاهدة الفضائيات، وغيرها، الأمر الذى أصاب عقول الخطباء بالتخمة وتخمة العقول أشد خطراً من تخمة الأبدان؛ لأن تخمة الأبدان يمكن علاجها بالعقاقير الطبية، والتمرينات الرياضية، لكن تخمة العقول فساد كبير، لا تعالجها العقاقير، ولا التمرينات. ولكن يعالجها شىء يسير اسمه "الهمة والنشاط" وهما من الإرادة والغرم والتصميم ولكن الهمة قد سافرت إلى غير رجعة، وصارت الكتب والمراجع أسماء فى الذاكرة، وزينة على الجدران، ديكور كما يقولون، ما فتحها الخطيب، وما اعتكف عليها، وإن اضطر فتحها من أجل أن ينظر فى شىء نفاه، وأثبته غيره، أو يرد به على من هاجمه.

ما أصعب أن يكون الشىء فى المتناول وما إليه وصول، حيث إن الإفادة منه محققة، والرجوع إليه سهل، وليس بذى عذر، أى ليس مثل العيس "الإبل" التى قال فيها الشاعر:

كالعيس فى الصحراء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

وقبل هذا البيت بيت مهم، هو قوله:

ومن العجائب والعجائب جمة قرب الحبيب وما إليه وصول

وإذا كان الشاعر يرى أنه من العجيب عدم الوصول إلى الحبيب برغم قربه، فإن من العجيب ألا يفيد الخطيب من المصادر برغم قربها، فهى بين يديه مطبوعة منمقة، واضحة، محققة، فمن اليسير جداً أن يتعامل معها، وأن يفيد منها، وأن يغترف من معينها زاداً يرفع به رأسه فى الناس، ويعلمهم، ويبث فيهم المنهج الرشيد الذى يعالج واقعهم، ويبشرهم برضوان الله فى الدنيا ويوم

www.ibtesama.com

يلقونه، ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾. ولن يتحقق هذا الفضل من الله والرضوان عن جهل وعن تفاخر وعن ضباب فى الوعظ، وجهل فى الإرشاد، ولكن بالعلم، والعلم قواعد وأصول، وكليات وجزئيات، وحدود معروفة وقضايا تمس صلب الحياة، فنعالجها على هدى ونور إن كثيراً من الذين يعتلون المنابر يقصون على الناس حواديت بلا سند، ولا معنى، أو ينقلون إليهم نشرات الأخبار وهم قد سمعوها من قبل، وربما فهموا أبعادها أشد مما فهمه الخطيب نفسه الذى أقحم نفسه وجمهوره فى السياسة إلى غير ذلك من الأمور التى لا صلة لها بالواقع الذى يعيشه الناس.

من أجل ذلك كان على الخطيب أن يحقق هذا الحلم اليسير، على نفسه، وعلى الناس بالإطلاع الجاد، وإعمال الفكر فيما يناسب البيئة التى يخطب فيها. ولا يتكل على ما يسمى بفتح الله- عز وجل- يقول كثير منهم حين نسأله عن موضوع خطبته: والله ما أعددت شيئاً، لكن الله يفتح! أقول لمثل هذا: نعم إن الله يفتح بأن يخرج منك ما أودعه فيك من علم حصلته بهمة ونشاط، وقوة: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾. فإذا لم يكن داخلك شىء منه فكيف يفتح الله عليك؟ هل تظن أن جبريل سوف يهبط عليك بعلم،.

أحلام يسيرة دونها أهوال

﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ . فَكُّ رَقَبَةٍ . أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ . يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ . أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ . ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ . أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾.

صورة من صور القرآن الكريم فى بيان الأهوال التى تقف دون تحقيق الحلم اليسير لرقبة تود أن تنفك من عبودية البشر إلى

www.ibtesama.com

عبودية الله وحده فالأولى منتهى الذل، والثانية منتهى العز، وبوسع الذين آمنوا أن يشتركوا فى عتق الرقاب، وبوسع أولى الأمر أن يجمعوا الزكاة ومنها يحررون رقاب البشر من قيود الديون، والفقر والذل والحاجة وليتيم محروم قريب من غنى قادر على إسعافه وإسعاده، قد يكون عمه أو خاله، أو ابن عمه أو ابن خالته، ولمسكين ملتصق بالتراب من شدة الحاجة والجوع، يرفع رأسه فى الناس برغيف أو بلقمة أو بثمرة، أحلام يسيرة، ولكن دونها أهوال هى عقبة النفس الكؤود، التى جبلت على الشح "وأحضرت الأنفس الشح" وذلك عند الدعوة إلى الصلح الذى قال فيه النبى-ﷺ- "الصلح بين المسلمين جائز إلا صلحاً أحل حراماً، أو حرم حلالاً" لكن كيف يصطلح الناس وقد حضر الشح الذى يقول لصاحبه: حذار حذار من أن تتنازل عن جنيه واحد، أو عن حبة واحدة، ويصور له أن تنازله عن شىء من حقه فيه إذلال له، وفيه اتهام الناس له بالضعف والهوان، وعليه أن يكون رجلاً أسداً، لا هراً ناعماً، وكل ذلك من الأوهام التى تجعل الأحلام اليسيرة صعبة المنال، عزيزة الوقوع، ومن الأحلام ما يتوقع برغم عظمتها واستحالة وقوعها فى ضوء معطيات الواقع العصيب. فما عسى أن يقال فى الأحلام اليسيرة، التى هى أسهل بكثير من تلك التى يعتقد العاقل الخبير بأمور الحياة أنها من قبيل المستحيل ولكنها تتوقع.

وقد مر المنفلوطى برجلين، كلاهما يشكو بطنه، فسأل الأول عن سبب وجع بطنه فقال: أكلت فوق طاقتى، وسأل الثانى عن سبب وجع بطنه فقال: لم أكل لقمة منذ ثلاث ليال فقال الأديب المنفلوطى، لو أن الذى أكل فوق طاقته أعطى الثانى الذى لم يأكل منذ ثلاث لقمة لما شكا أحد منهما وجع بطنه، إنها المعادلة

www.ibtesama.com

المفقودة، والتى من السهل اليسير إقامتها على الوجه الصحيح الذى يعتدل به طرفاها، أغيها وأيسرها حتى يصيرا جميعاً يميناً، باعتدال وحكمة، أليس من اليسير أن يعطى الغنى الفقير لقمة، لو أكلها لما جاع، ولما شكا بطنه ولو أضافها الغنى إلى ما أكل لأوجع بها بطنه، لكن الذى يحول دون أن تتحقق تلك المعادلة أهوال من عقبة النفس التي لا يقتحمها ولا يتجاوزها إلا من وقاه الله شح نفسه ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

وشح النفس من الأوجاع والأمراض العضال، وهو كما ذكرت من الأوهام، حيث يتوهم الشحيح أنه لو أخرج من جيبه شيئاً ضاع، وضاعت أسرته، وهو مع طول الأمد والاستمرار يورث التأصيل فى النفس والقلب حتى يكاد يكون أصلاً ومنهاجاً، ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

وقد يبخل المرء على نفسه، فيقتل نفسه من حيث يظن أنه يحييها، وقد حدثنى رجل فاضل كريم؛ فقال: لقد ذهبت لأصرف مكافأة نهاية خدمتى، وكان مبلغاً كبيراً فى هذا الوقت كان حوالى عشرين ألف جنيه، قال: وركبت الأتوبيس ومعى هذا المبلغ، ووصلت بحمد الله سالماً، لكن عذبنى ما فعلت وأخذت أضرب نفسى بيدى، وأقول: أما هان عليك وأنت تحمل هذا المبلغ الكبير أن تنادى تاكسياً، وتعطيه جنيهاً وتسلم بالباقى، ماذا لو خرمك لص بمطواة وأخذ منك هذه الثروة أو كان أستاذاً فى السرقة، فاحتال حتى سرقه منك فى غمضة عين، أو وضع على أنفك مخدراً، فرحت فى دوار، وتيه، حتى أخذه من يدك فى سهولة ويسر وإتقان، أردت أن توفر الجنيه، ولا تدرى أنه كان من اليسير أن تخسر عمرك، ومكافأة نهاية خدمتك، كان يسيراً عليك أن تدفع الجنيه من أجل أن تحافظ على الكثير الذى تؤمل فيه أنت

www.ibtesama.com

وبناتك، وما ذلك إلا لأن الرجل قد اعتاد أن يركب الأتوبيس، وأن يدفع ثمن التذكرة وكانت فى ذلك الوقت قرشاً واحداً، أى جزءاً من مائة جزء من الجنيه رخيصة ولكن الثمن الذى كان من الممكن أن يدفعه عسير غال حلم يسير، لكن دونه أهوال من عقبة النفس.

أحلام يسيرة دونها أهوال

مثال يسير على حلم يسير دونه أهوال، هى من عند أنفسنا وهو أن يريد شخص مهاتفة شخص آخر، ولكنه يحمل جهازاً غير مشحون، وهو فى طريق لا يتسنى له فيه أن يشحنه، فهو يحمل جهازاً قد يكون غالياً ولكنه كقطعة الحجر، وقد يكون شخص آخر حاملاً جهازاً دون جهازك بكثير، لكنه مشحون، ويستطيع أن يهاتف من خلاله من يريد، كما يستطيع استقبال ما يأتيه من مكالمات الآخرين، فعند التحقيق تقول: إن جهازه- مع ضعفه ورخص ثمنه- أعظم من جهازك مع قوته ومتانته وغلو ثمنه؛ لأنه حقق به حلمه، لكن جهازك لم يحقق حلمك برغم غلو ثمنه وندرة صنفه ومتانته.

وقس على ذلك سيارتك الفارهة، المجهزة على أحدث نظام، المكيفة، الغالية بلا شك، النادرة ربما، ولكنك أنسيت أن تنظر فيها قبيل انطلاقك بها، وكان بها عطب قليل، تضخم حتى توقفت بك، وهى جماد لا يعرف كيف يرحمك، فهو سبب له معطيات، متى تحققت انطلق، وإذا لم يتحقق سكن وسكت، ولو فى عرض الطريق، أو فى مكان لا يليق ساعتها لا تلومن إلا نفسك، فأنت ذلك الذى صنعت الأهوال، التى بسببها لم يتحقق حلمك اليسير، وهو أن تبلغ بسيارتك ما تريد، وبلوغك بها ما تريد حلم يسير، حيث إنها معدة لمثله وزيادة، ولكنك سبب فى تعطلها، وتوقفها،

www.ibtesama.com

حيث أهملت النظر فيها، وتزويدها بما تحتاج إليه من ماء وغيره، وقد تكون أنسيت أن تزودها بالوقود اللازم للرحلة، فنفد وقودها،فتوقفت، ولو نظرت إلى رجل يركب حماراً، وهوبه منطلق لرأيت حماره أفضل من سيارتك؛ لأنه يبلغ به ما يريد، من الوصول إلى بيته، أو إلى حقله، أو إلى السوق، أو إلى أى مكان.

فما أكثر الصور التى تدل على أهوال تحول دون تحقق الأحلام اليسيرة، وقد تكون هذه الأهوال بسبب الغرور فالمغتر بعقله الناقص، الذى لا علم فيه ولا خبرة يقول إذا قال له أحد: اشحن جهازك: إن به ما يكفى ويقول لمن يقول له: املأ خزان سيارتك بالوقود: إن بها ما يكفى للذهاب إلى الإسكندرية والعودة إلى القاهرة وتكون النتيجة أن الشحن يفرغ مع أول أجراس، وأن الوقود ينفذ من السيارة قبل الوصول إلى بنها فضلاً عن الوصول إلى الإسكندرية، ثم العودة إلى القاهرة وهكذا.

وقد يقول قائل حكيم: املأ سيارتك من هنا فيرد قائلاً: فى الطريق، فى الطريق، وقد يجد سائر محطات الوقود فى الطريق خلواً من الوقود.

وما كان يضره لو أنه خرج بها ممتلئة، وإن نقص منها شىء زادها من محطات الطريق،إن وجد بها وقوداً، ومن قديم قالت العرب: "أن ترد الماء بماء أكيس" أى ورودك على أماكن الماء فى الطريق، ومعك ماء دليل كياستك ورجاحة عقلك؛ فإن ذلك لا يضرك، إنما يضرك أن تتكل على الماء الذى فى الطريق، ثم تتجه إليه فلا تجده إلا قد غار ونضب عندئذ ماذا تفعل؟ وماذا تقول غير كلمات الأسى والأسف، والاعتذار، والندم ولكن بعد فوات الأوان.

www.ibtesama.com

كان بوسع المغرور أن يحتاط، فيشحن جهازه حتى التمام، وينظر فى سيارته قبل أن ينطلق بها، ويملأ خزانها بالوقود، ويعد للأمر عدته، قال الله- تعالى- فى ذم المنافقين: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾. وما أكثر المتشبهين بأخلاق المنافقين، فى ذلك، وفى غيره ولا يزعمن زاعم أن ذلك فى الجهاد والقتال دون السفر المباح فى زمان السلم؛ فالإعداد مطلوب فى كل شىء، وفى كل مجال، وفى كل سياق، ومنه إعداد خطيب الجمعة خطبته من الجمعة إلى الجمعة، حتى تخرج منه درة قد صاغها فكرة وموضوعاً نافعاً بأسلوب محكم، وبعبارة مشرقة؛ وبدليل صحيح، وهذا حلم يسير، لكن دونه أهوال هى ادعاء أن الله سوف يفتح، وهذا وهم؛ فإن الله يفتح لمن أعد وتعب، وبذل الجهد وحصل العلم.

أحلام يسيرة دونها أهوال

ما أيسر المد، وما أقصر اليد، أو كما يقول العوام من الناس: العين بصيرة، واليد قصيرة، قد يكون المرء فى حاجة إلى ساندوتش طعمية أو فول، ثمنه جنيه، وهذا بالنسبة إليه حلم، قد يكون يسيراً لكن دونه أهوال، حيث إنه لا يملك هذا الجنيه، والدليل على أن عدم ملكية الجنيه من الأهوال قول الله- تعالى-: ﴿وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾. وقول النبى-ﷺ- "كادت الحاجة أن تكون كفراً" وليس بعد الكفر أهوال، إنها الحاجة، وإنه الفقر الذى عالجه الإسلام، ومع ذلك أحبه الناس، وادعوا أنه خير من الغنى، وقالوا وقد ناموا: ربما لو اغتنينا لأفسدنا فى الأرض، وإذا اجتمعوا على طعام لا يسمن ولا يغنى من جوع ضحكوا وقالوا: ربما لو كنا أغنياء لما اجتمعنا عليه يظنون أن الغنى سبب فى تفرقة الشمل، وأن الفقر هو الذى جمع بينهم، فهم

www.ibtesama.com

يقولون: اللهم أدم علينا الفقر حتى نظل مجتمعين، وأدم علينا البؤس حتى نظل ضاحكين، منطق عجيب غريب، فما الذى يمنع أن يقولوا: لو كنا أغنياء لأصلحنا، بدل أفسدنا، وقد ورد فى الحديث إنما الدنيا لأربعة نفر، رجل آتاه الله مالاً وعلماً، فهو يتقى فيه ربه، ويصل به رحمه وهذا بأعلى المنازل، ورجل أتاه الله علماً ولم يؤته مالاً فهو يقول: لو أن لى مالاً لعملت فيه بعمل فلان؛ فأجرهما سواء فلم يتمنى الفقير أن يكون مثل أخيه الفقير، وأن يظلا فقيرين حتى يدوم لقاؤهما، وتدوم مودتهما، ويدوم صفاؤهما فلم لا يدوم اللقاء، والمودة، والصفاء على الغنى، لا على الفقر لكنه الفكر الذى إذا أضفت إليه معنى الزهد غير الصحيح مع البطالة والرضا والقناعة غير الصحيحين أيضاً تبينت لك أسباب الفقر التى عالجها الإسلام بالعمل، والدعوة إلى الكسب الحلال، وإشباع غريزة الطعام والشراب والجنس عن طريق الزواج، وكذا مشروعية الزكاة، والصدقة، والتكافل الاجتماعى بمعناه العام والذى يتضمنه حديث: "من كان له فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له" وفى الصحيح: "لا يدخل الجنة من بات شبعان وجاره جائع إلى جواره وهو يعلم"، وعنه-ﷺ- أنه قال: "أنا وكافل اليتيم فى الجنة كهاتين"، وقد سأل-ﷺ- الصحابة يوماً؛ فقال:

أيكم أطعم اليوم مسكيناً؟

فقال أبوبكر: أنا

قال عليه الصلاة والسلام:

أيكم أصبح اليوم صائماً؟

قال أبوبكر: أنا

www.ibtesama.com

قال عليه الصلاة والسلام:

أيكم تبع اليوم جنازة؟

قال أبوبكر: أنا

فقال عليه الصلاة والسلام: ما اجتمعن فى امرئ مسلم إلا دخل الجنة.

وقد دعا الإسلام إلى المثالية المعقولة الممكنة حيث قال عليه الصلاة والسلام: ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبى الله داود-عليه السلام- كان يأكل من عمل يده.

وقال للأنصارى الذى جاءه سائلاً، فسأله عما فى بيته، وأمره بإحضاره، وباعه له بدرهمين، أعطاهما إياه وقال له: اشتر بأحدهما طعاماً فانبذه إلى أهلك، واشتر بالآخر قدوماً وائتنى به، فلما أتاه به وضع فيه عوداً بيده الشريفة، وقال له: اذهب، واحتطب، وبع، ولا أرينك خمسة عشر يوماً، إن المسألة لا تصلح إلا لذى فقر مدقع أو لذى غرم مفظع.

وفى الحديث: "لأن يأخذ أحدكم حبلاً على عاتقه فيحتطب، ويبيع خير له من أن يسأل الناس، أعطوه أو منعوه".

ورب ذنب لا تكفره الصلاة ولا الصيام، ولكن يكفره السعى على المعاش، وفى الصحيح: من بات كالاً من عمله بات مغفوراً له،كل هذا وغيره من الأدلة على أن هذا الدين يدعو على العمل، وصون وجوه الناس عن السؤال؛ لأن فيه مذلة، وإذا عمل المرء حقق حلمه اليسير وحلمه الكبير معاً، ولم تعد هنالك أهوال دون تحقق حلمه هذا، أو حلمه ذاك!

www.ibtesama.com

أحلام يسيرة دونها أهوال

دعوتك يا كليب فلم تجبنى وكيف يجبنى البلد القفار

نادى الشاعر كليباً، وظل يكرر نداءه، وكليب قد دفن فى الصحراء الشاسعة، وصار سكوناً من بعد حركة، وصمتاً من بعد كلام، وقفراً من بعد وجود، لفه الموت فى ثوب العدم: فكيف يجيب من ناداه!

نعم إن الجواب بنعم لمن ناداه حلم يسير، لكن دونه أهوال هى أن الميت لا يجيب من يناديه بنعم، أو بلا مسموعة تصل إلى أذنيه، يذكرك هذا المشهد الجاهلى بمشاهد الدراما الكثيرة المختلفة حين تصرخ المرأة زوجها أو ولدها وقد مات، وتناديه قائلة: رد على، قم، كلمنى، حلم يسير، وليكن دونه أهوال، قضى الكتاب بها والسنن، ولا حول ولا قوة إلا بالله حلم يسير للحى، يود أن يرد عليه ميته بكلمة، لكن دونه أهوال؛ فإنه لن يجيبه.

وكذلك الميت نفسه، تأتيه لحظة الموت وقد يكون له حلم يسير أن يشرب جرعة ماء مثلاً، أو أن يرى ولده القادم من مكان غير بعيد، أو حتى أن يكتب وصية، بل أن يغمض عينها ويفتحها، ولكن دون هذه الأحلام اليسيرة أهوال، فما هى بمحققة أبداً؛ لقول الله- عز وجل-: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾.

وهذه الحقيقة تجعل الذى يتفكر فى الموت يهم بعمل ما هو فى حاجة إليه من صالح الأعمال، التى تنفعه فى الدنيا والآخرة قبل أن تهجم عليه لحظة الموت، فى أى وقت، وفى أى مكان، وعلى أية حال يكون فيها ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

www.ibtesama.com

وقد طالعنا كتب التراجم، ووقفنا عند رجالات من أهل العلم أدركهم الموت، وهم يكتبون، أو يبحثون، لم يمهلهم الموت حتى ينتهوا من كتاباتهم، أو بحوثهم، فالإمام مسلم دخل يبحث عن حديث، فلم يخرج، ووافته المنية، والإمام عبدالرحمن الأوزاعى عالم الشام دخل الحمام، فاختنق فيه ومات والإمام جلال الدين المحلى شرع فى تفسير القرآن الكريم فأدركته المنية عند منتصفه، وأكمله الجلال السيوطى، وسمى تفسيرهما تفسير الجلالين، وهو مشهور، والنماذج على ذلك كثيرة، أكثر من أن تحصى.

والوحيد الذى لقى ربه بعد تمام رسالته هو رسول الله-ﷺ- روى أنه حين نزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾. بكى الصديق-رضي الله عنه-، وقال: ما أراها إلا أنها نعت للنبى-ﷺ- نفسه، وقد فهم هذا منها ابن عباس- رضى الله عنهما- وهو الذى أقنع الكبار بجلوسه معهم فى مجلس عمر بن الخطاب-رضي الله عنه- حيث استصغروه، فأراد عمر-رضي الله عنه- أن يكتب لهم أنه أهل لمجالستهم، فسأله عن معناها وسألهم، فأجابوا بما يقتضيه الظاهر من حمد الله وتسبيحه إثر مجئ النصر والفتح، وأجاب ابن عباس بما تقدم، أنها نعى لرسول الله-ﷺ- فقال عمر: لا أفهم منها إلا الذى تفهم.

وكثير من الناس يؤجل أحلامه اليسيرة إلى أجل غير مسمى، حتى يباغته الأجل المسمى؛ فيذهب دون تحقيقها هناك مثلاً فلاح عرفته، وقد اشترى قطعة قماش، وركنها وكلما قالت له زوجته: اذهب بها إلى الترزى وفصلها قال قبيل العيد، قبيل العيد، وظل هكذا حتى جاء العيد، وهو فى زمرة الأموات، ولم يلبسها مع أنه

www.ibtesama.com

كان يشتهى لونها وملمسها الرقيق، كان على أمل أن يلبسها فى العيد، ويا ليته لبسها قبل العيد، وقبل أن يحين الأجل الذى لم يمهله وهيهات أن يمهله أو يمهل غيره حتى يراها على بدنه فى يوم العيد وهناك من ينوى زيارة أخيه، أو زميل له قديم، لكنه يمهل تلك الزيارة، حتى يأتيه الأجل، أو يأت من كان يرغب فى زيارته، وقد كتبت ذات مرة مقالاً بعنوان (بين الشجرتين أشجار) فى صاحب لنا، دخل مستشفى على بابه شجرة ونقل منه إلى المقابر وعلى المقبرة شجرة، فلا رأى الأولى ولا رأى الثانية، وكان بينهما أشجار لم يرها أيضاً، حيث كان مشغولاً بما رآه أهم، وكان حلمه أن يتكئ إلى جذع واحدة ويتنفس قليلاً من معاناة الحياة، وهذا حلم يسير لم يتحقق حيث هجم عليه الموت فجأة، فدون الحلم أهوال.

أحلام يسيرة دونها أهوال

﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

كان يمشى فى قلب الظهيرة، والشمس فى الصيف، وفى تلك الساعة كأنها عمودية على رأسه هو دون غيره من البشر والمخلوقات كان يلهث من حرارة الجو، وحرارة الظمأ، وعلى يساره بساتين هى من آيات الجمال، كان يود لو أن الوقت وقت العصر؛ فامتدت ظلال أشجارها إلى الطريق الضيقة الملتهبة التى أحرقت قدميه، وما أغنى حذاؤه البالى عنه شيئاً من لهيبها، لكنه لمح طلمبة الماء العذب فى دائرة ظليلة إلا من بقع يسيرة من الشمس، وصبى هو ابن أحد الحراس يحرك يدها الحديدية ويملأ من مائها العذب الصافى دلواً، تدل تحت فوهتها الأنيقة، كانت خضراء بلون الزرع، وود لو أنه مال نحوها وشرب حتى يرتوى، أو رمى بنفسه تحتها، ليتدفق الماء منها على سائر بدنه، يرطبه

www.ibtesama.com

من حرارته، ويواسى نفسه المعذبة من أثرها، ولكن دون ذلك أهوال؛ فإن كلاب الحراسة التى تحيط بها، وبغيرها من أرجاء البساتين المتلاصقة كالأسود، لن تسمح له بشىء من ذلك الحلم اليسير، وحدثته نفسه بأن يغامر، ويلقى بها نحو الماء، ولو مزقته الكلاب، وقطعته أشلاء، لكنه تراجع، ومنى نفسه بسرعة الوصول إلى أخرى على رأس حقل لفلاح صغير لا يمنع الناس عنها، فليصبر قليلاً حتى يصل إليها، وراودته نفسه من جديد، ولكن إلى فكرة أخرى أن ينادى الصبى كى يغيثه بشىء من الماء لله، وقد فعل، لكن الصبى بادره قائلاً بما حفظه أبوه: امش أو أسلط عليك الكلاب؛ فإن هذا الماء لا يصح أن يتذوقه مثلك، فليس سبيلاً لكل من هب ودب؛ فهو للعاملين بعزبة الباشا ولكلابه، وأما غيرهم فلا، فانصرف خصوصاً بعد أن سمع أزيز صدور الكلاب يغلى، وكأنها فهمت الصبى حيث ذكر اسمها، فهمت بتنفيذ أوامره، فجرى فى طريقه، وقد انتشر فيه وحوله هيرمون عجيب جعله يمد خطاه، إلى أن وصل إلى طلمبة الغلابة، فشرب حتى ارتوى، ومال إلى جذع شجرة عجوز، وأخذ يتذكر ما كان من حوار مع الصبى، وكأنه أطلق فى وجهه كل كلاب الباشا.

كان الرجل يحلم حلماً يسيراً، ولكن حالت دونه أهوال، نستطيع أن نسميها شح النفس وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

إن شح النفس من أخطر الأهوال التى تواجه مثل هذه الأحلام اليسيرة، وقد روى مسلم فى صحيحه أن مانع فضل الماء لا يكلمه الله يوم القيامة، ولا ينظر إليه، وله عذاب أليم، وقد مدح ربنا- تعالى- الأنصار، حيث قال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا

www.ibtesama.com

وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

وقد نزلت فى أنصارى أضاف ضيف رسول الله-ﷺ- تركه فى المسجد، ثم ذهب إلى أهله؛ فسأل امرأته: هل عندنا الليلة من طعام؟ فقالت: لا طعام عندنا إلا طعام الصبية؛ فأرشدها إلى أن تشاغلهم حتى يناموا دون عشاء، ثم تقوم متظاهرة أنها تصلح السراج، فتطفئه، ثم تجلس إلى جنب زوجها ويتظاهرا بأنهما يأكلان ولا يأكلان، حتى يشبع ضيف رسول الله-ﷺ- وقد كان، فلما أصبح، قابله بالبشر رسول الله-ﷺ- وبشره بأن الله قد ضحك (رضى) بسبب ما فعله الرجل وامرأته وأنزل فيهما قرآنا يتلى إلى قيام الساعة، فانظر إلى مثل هذا الأنصارى، وانظر إلى مثل هذا الباشا الذى كان بوسعه أن ينشر الماء، يسوقه فى طيبات بساتينه لكل من يمشى على ظمأ، يرتوى وهو حلم يسير، يكون إثره بركة الله فى الدنيا وحسن ثوابه يوم القيامة، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم!

أحلام يسيرة دونها أهوال

لو بالعين

قال كما قالت كلمات الأغنية: لو بالعين أنظر حبيبى، فقط يود من بعيد أن يراها، حلم يسير، لكن دونه أهوال، وقد يظن ظان أن حبيبته تحت التراب فى زمرة الموتى، أو يظن أنها فى بلد بعيد، ودون السفر إليها مفاوز، وجبال، وأهوال، وليس من سبيل إلى الوصول إليها، أو يظن أنها هامت على وجهها، وضلت بها الطرق الوعرة، أو المعبدة، لكن لا يدرى لها عنواناً، وقد يظن أنه هو قعيد الفراش، به شلل،لا يقوى على الحركة حتى باب منزله أو

www.ibtesama.com

منزلها، أو غير ذلك من الاحتمالات المتوقعة أو غير المتوقعة، عندئذ تكون هنالك أهوال حقيقية من صنع القدر، والله يفعل ما يشاء، لكن ذلك كله غير وارد فى تلك الحالة، إنها قريبة منه، وقد أصبح منها محروماً بعد أن كانت زوجته، حليلته التى بالعين يراها، وباليد يلمسها وغير ذلك، لكنه طلقها؛ فبت طلاقها، وانقضت عدتها منه، وتزوجت غيره، واستقرت بها الحياة، وطابت نفسها لزوجها الثانى، وطابت نفسه لها، والآن صارت حلوة بعد أن كانت مرة، أى صارت نفيسة بعد أن كانت رخيصة، وصارت جميلة بعد أن كانت دميمة، وصارت مرغوباً فيها بعد أن كانت مزهوداً فيها كانت ملء السمع والبصر لمن رآها من أهله وأرحامه، ما عداه، فلم تملأ له سمعاً ولا بصراً، كانت فى بيته لكنه رآها أبعد ما تكون، وقد صارت بالفعل أبعد ما تكون، وإن كانت قريبة، الآن يريد أن يراها فقط بعينه وما أكثر الذين يحلمون مثل هذا الحلم اليسير الذى دونه أهوال، هم الذين صنعوها بأيديهم، فمثل هذا الرجل الذى ود أن يكون مجرد ناظر إلى امرأة، صارت بالنسبة إليه أجنبية، وقد كانت أقرب الناس إليه، كان بوسعه أن يراها كاسية وأن يراها عارية،وأن يدعوها إلى فراشه، وأن يحيطها بذراعيه، وأن يدنو منها إلى الحد الذى يريد دون أن يكتم أنفاسها، أو يقتلها، لكن ذلك كله لم يكن إنما كانت مهملة، مهجورة، هجرها، فى حجرتها، ونام عنها بعيداً، حتى عند تناوله الطعام، لم يكن ليأكل معها وقد جفاها وكم رجته أن يبقى عليها، وألا يطلقها، وأن تحيا إلى جواره خادمة، لكنه أبى، يذكرنى هذا بما قاله الفرزدق الشاعر الأموى الكبير، بعد أن طلق زوجته نوار حيث قال:

ندمت ندامة الكسلى لما ... بدت منى مطلقة نوار

وكانت جنتى فخرجت منها ... كآدم حيث أخرجه الهذار

www.ibtesama.com

فكنت كفاقئ عينيه عمداً فأصبح لا يضئ له النهار

وكم من فاقئ عينيه عمداً، يندم إثر ذلك ندم العمر، حيث وجب عليه الظلام، بعد أن كانت عيناه تبصران، أى بعد أن كان فى النور، ومن ذلك التعسف فى الطلاق الذى صار بشعاً من أول الخطبة، والولد الحدث يحلف بالطلاق، ومن بعد عقد الزواج (القران)، ومن بعد البناء (الدخلة) بأيام وعلى مدى العمر، فى الطلعة والنزلة حلف بالطلاق، وفى الحوار العادى، وفى المجادلة، وفى الخصومة والرضا، وما من شرط إلا وهو معلق على الطلاق، يقول لها "إن خرجت فأنت طالق، وإن كلمت فلانه فأنت طالق، وإن حركت هذا الشىء فأنت طالق، وإن زرت أمك فأنت طالق، أهذا خلق المسلم الذى يعلم أن الطلاق لا يكون إلا إذا استحالت الحياة، والحياة تستحيل بين الزوجين إذا ما كان هناك نشوز وإعراض من جانبها أو من جانبه ولم تفلح وسائل الإصلاح، قال الله تعالى: **﴿وَاللاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ﴾**. وقال سبحانه: **﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾**.

وقال تعالى: **﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾**.

ولا تكون مستحيلة لمجرد خلاف فى الرأى، أو إبداء وجهة نظر، أو غير ذلك من الأمور التى يمكن أن تستمر معها الحياة.

أحلام يسيرة دونها أهوال

قال رب السيف والقلم محمود سامى البارودى:

يا حبذا جرعة من ماء مخيبة وضجعة فوق برد الرمل بالقاع

www.ibtesama.com

انظر إلى هذا الحلم اليسير، شربة ماء من ترعة، وضجعة فوق الرمل البارد فى القاع، لا فى القمة، ولكن دون هذا الحلم اليسير أهوال، حيث كان الشاعر فى المنفى، يبث حنينه وشوقه إلى بلاده وقليل منها يشفيه، ويبل صداه، ويأسو جرحه، وبمثل ذلك قال شاعر المهجر يخاطب بلاده قائلاً:

يا بلادى أرشفينى قطرة كل ماء غير ما فيك كدر

وهذا الحلم اليسير دونه أهوال، ولكنها أهوال معقولة،لأن المسافات بعيدة، والمفاوز شاسعة، والسجون حصون، والحراس أسد، والقوانين ظالمة، مسكين ذلك الحالم، الذى يحلم الحلم اليسير، ولكن دون حلمه أهوال، لا يستطيع اجتيازها، ولا يقوى على اقتحامها مكبل فى أغلال الظلم والطغيان، وبرغم هذا يشعر بانطلاق الوجدان نحو الأوطان، لا يرجو منها أن يكون عليها ذا جاه وسلطان، وإنما يرجو منها موافاته بجرعة ماء، وأن يتمكن من ضجعة هنيئة فوق برد رملها فى قمة القاع لا فى قمة الربا، أو فى عليا الأماكن، مسكين ذلك المنفى البعيد الذى طرح كما تطرح الأشياء فى مكان بعيد، وقد كان قريباً منها، يعيش على أرضها ذات الطول والعرض، وقد دافع عنها، وعن حريتها، وكرامتها، ورأى المعتدى أنه خطر عليه؛ فنفاه بعيداً عنها، وأقصاه، وهو لا يدرى أنه ازداد منها قرباً، ولها حباً، وبث شوقه شكراً عاش من بعده، وسوف يعيش، يبعث الأمل ويرسل النور فى طريق العاشقين للأوطان إلى آخر الزمان ليكونوا امتداداً له فى جهاده، ونضاله، وإن كان مصيرهم مثل مصيره.

ولكن هنالك أهوال غير معقولة، أهوال يضيعها الإنسان بحمقه وجهله وغبائه؛ فلا عذر له، إن لم يتحقق حلمه اليسير،

www.ibtesama.com

ومن ذلك مثلاً خصومته لأخيه، ابن أمه وأبيه، أما سمعت رجلاً يقول فى حلمه اليسير إنه كان يأكل مثلاً صنفاً من صنوف الطعام عند أخيه، لا يأكل مثله فى أى مكان فى الدنيا، وأن الظروف (الأهوال) حالت بينه وبينه، فإن سألته قال: بينى وبينه خصومة، وقص عليك قصة الخصومة، وما كان فيها، وما كان بعدها من هجر وقطيعة دام سنوات، وهو لم يذكر فى تلك المدة شوقه إلى أخيه ابن أمه وأبيه، وإنما ذكر ذلك الصنف من الطعام الذى يشتهيه، ويعده أخوه، أو امرأته، أو أحد من ولده، ولا بأس بهذا، لكن ما الذى يحول دونه، وهو بوسعه أن يتصل به، وأن يعود إليه، ويزوره، ويأكل عنده مشتهاه.

فضلاً عن كون الهجر فوق ثلاث، فقد روى فى الصحيح أنه- ﷺ- قال: "لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يهجر أخاه فوق ثلاث، يلتقيان؛ فيعرض هذا، ويعرض هذا، وخيرهما الذى يبدأ بالسلام".

فما الذى يمنع أن يبدأ أخاه بالسلام، إنها النفس الأمارة بالسوء، التى تحول دون أن يتحقق هذا الحلم اليسير، ما كان أيسر أن يتحقق هذا الحلم، لو أنه اتبع الهدى لا الهوى، والهوى تيار جارف، يقذف بالمرء فى مهاوى الإحباط، الذى يظنه فوزاً وانتصاراً، وغلبة، كأنه فوق أخيه، وفوق الظروف، وفوق الدعوة الطيبة إلى الله عز وجل، يفخر بذلك أحياناً، ويقول: أنا الحياة، وأنا الدين، وأنتم لا تعقلون حياة، ولا تفقهون ديناً أى دين يجبرنى على أن أعانق أخى وأصالحه وهو الذى أكلنى، وظلمنى، واستولى على ميراثى، وشتم زوجتى وأهاننى، وفعل كذا وكذا، إنه يرى الدين وفق هواه، وهواه أن يقتل من قتله، ويضرب من عذبه، ولا يصل إلا من وصله؛ فإن قلت له: إن مكارم الأخلاق التى بعث من

www.ibtesama.com

أجل إتمامها رسول الله-ﷺ- وهى أن تصل من قطعك، وتعطى من منعك، وتعفو عمن ظلمك.

قال لك: كان هذا أيام زمان، أو قال لك: كان هذا عند الأنبياء ولم يقنع منه بشىء، وهو فى الحقيقة مريض ضعيف، يكفى أنه ذو حلم يسير، لكن دونه أهوال، ما صنعتها الأقدار كالتى عاشها شعراء المنفى، ولكن أهوال صنعها بغبائه وحمقه!

أحلام يسيرة دونها أهوال

كلما نظرت إلى الصحراء الشاسعة التى تحيط بالعاصمة القاهرة على بعد مسافة بعيدة من الشرق، ومن الغرب قلت: ما الذى يمنع أن تبنى هنا مساكن يسيرة، تليق بالناس الكرام، وتخفف من عنت التكدس والزحام، أو لماذا فكرنا طويلاً فى نقل الوزارات إليها، وغير ذلك، ثم نامت الفكرة التى هى حلم يسير ولكن دونه أهوال، وتلك الأهوال نبعت من تعسف فى اللوائح والقوانين، وسوف تظل صحارينا الشاسعة، ومواردنا العظيمة تضحك سافرة منا، وتشكو بثها وحزنها إلى الله الذى استعمرنا فيها، ولكننا تركناها دون إعمار، وسوف نظل نعانى، ومن أسوأ المعاناة ما نسمعه من فلسفات وتحليلات غريبة، صادقة كانت أو كاذبة؛ منها أنها سياسة الإذلال للشعب الضعيف، وقد استولى على شىء عظيم من تلك الصحارى رجال أعمال، لم تقف أمامهم تلك الأهوال، بنوها فيلات وقصوراً، وشققاً عظيمه بالملايين للقادرين، مالكى السيارات الفخمة والقادرين على أن يأكلوا ويشربوا من الهيابر الراقية، والدريفلى الذى يوصل إليهم طلباتهم حتى أبواب منازلهم، أما عامة الناس الذين نودى عليهم ذات يوم بنداء: ابن بيتك، فما بنوا بيوتهم، وما وجدوا إلى الحياة الكريمة سبيلاً.

www.ibtesama.com

ومنهم من لم تصبه القرعة، وما أدراك ما القرعة؟ ومن الناس من عرف الطريق إلى القرعة، فاستولى على مساحات، وباعها لمشتاق يجرى وراء القرعة، ويحصل منه على مبالغ عظيمة، تركنا الناس، يتاجر بعضهم فى بعض، ويأكل بعضهم بعضاً، وكان بوسعنا أن نربح الجميع، ونريح الجميع، بأن نحكم بالعدل ونعطى الجزل؛ لأنه متوفر بين أيدينا، فبوسعنا أن نبنى وبوسعنا أن نوسع على الناس، لكن اللوائح الظالمة والعقول الجامدة أهوال ليس مثلها أهوال، إنها أهوال الرضوخ إلى واقعٍ بغيض نحن صنعناه بأيدينا، وبمقدورنا أن نغيره لأنه ليس تنزيلاً من عليا السماء، حتى نقول: لا تبديل له.

وانظر إلى شىء عجيب من تلك الأشياء الغريبة وهى التطوع، شخص يريد أن يتطوع بمبلغ من المال من أجل مؤسسة حكومية، لكن اللوائح تقول: لا بد أن يقبل رئيس العمل الكبير هذا التطوع، وبعد أن يقبله سيادته يأتى بما يريد أن يتطوع به، دخل شخص كريم إحدى الكليات، ووجدها بالية، فى حاجة على صنابير مياه، وإلى مراوح حيث شدة الحر التى تعصر الطلاب، وإلى وسائل إيضاح، وسأل عميد الكلية كم يتكلف ذلك؟ فقال: حوالى ثلاثين ألف جنيه فقال: أنا على استعداد الآن.

فاعتذر عميد الكلية، وقال: لا بد أن نكتب طلباً إلى رئيس الجامعة كى يوافق على قبول تبرعك، فنظر إليه الرجل، وقال: وهل هناك ما يمنع من قبول تبرعى؟ قال: لا، لا شىء يمنعه، وإنما هى اللوائح! فخرج الرجل ولم يعد بينما كتب العميد إلى رئيس الجامعة، وجاء الرد من إدارة الجامعة بقبول التبرع، ولكن بعد فوات الأوان، حيث مضى المتبرع إلى غير رجعة، فمن ذا

www.ibtesama.com

الذى يقبل مثل هذا المنطق الغريب الذى يفوت الفرص، ويضيع الآمال، ويخيب الرجاء إن هذا الحلم اليسير على المتبرع، والعظيم عند المتبرع من أجله لم يتحقق بسبب اللوائح التى هى أهوال نحن صانعوها، وكان بوسعنا أن نغيرها، كالفتوى الشرعية التى هى من الدين، وتتغير بتغير الظروف والأماكن والأحوال أتتغير الفتوى وهى شرع، ولا تتغير اللوائح والقوانين التى هى من صناعة البشر، هذا أمر عجيب، وسوف يزداد مع الأيام عجباً حتى ينفجر فى الناس ثورة عارمة تعصف به، وبغيره وعندئذ يسيطر الدخلاء الذين تسموا بالبلطجية ليحطموا كل شىء، ويهدموا كل بناء، ويحرقوا كل أخضر ويابس، وساعتها عندما نريد إعادة البناء من جديد سوف نواجه أزمتين: الأولى: المال الذى هو غير متوفر، والثانية: اللوائح الظالمة. التى قد تقف دون إتمام البناء وإن توفر المال عن طريق هذا التبرع، الذى تقف دونه أهوال اللوائح!

أحلام يسيرة دونها أهوال

أن تردى عليه السلام؛ إن عز عليك أن تتصلى به من تلقاء نفسك، هكذا قال الابن لأمه فى شأن أخيه الذى خاصمته وحلفت بوكيد الأيمان ألا تكلمه عمرها؛ لأنه أساء إليها، وأثر زوجته ذات ليلة عليها، مع أنه طول عمره بار بها، ويؤثرها على نفسه، ويتمنى الرضا لها كى ترضى، لكنها أخذتها العزة بالإثم؛ فحرمته على نفسها، وحرمت عليه بيتها، وقالت: ليس هذا بابنى، إنه ابن حماته السيئة، فما هذا بولدى الذى حملت، وطفلى الذى ربيت، وشابى الذى أعنت وزوجت، حاول ابنها أن يعتذر، وإن كان يرى أنه لم يفعل شيئاً يستحق عنه الاعتذار، ولكن إلى أين الفرار، وقد

www.ibtesama.com

ركبت والدته رأسها، وأيقنت أنه مجرم، لكنها لم تقبل عذره، وساق إليها أحبتها من الأقارب والجيران، والصواحب، ولكن لا فائدة، كان يتصل بها من خلال الهاتف الذى اشتراه من أجلها فى آخر عيد أم وعز عليها ألا ترد عليه، فقال لها أخوه، إن لم تتصلى به أنت، وتسامحيه، فردى عليه، وبلى صداه، وارحمى قلبه، وضعفه، فأبت إلا العناد، وأصرت على الجفاوة.

فانظر إلى هذا الحلم اليسير الذى دونه أهوال من نفس جبلت على عدم التسامح، وعين جبلت على الجمود لا من شدة الحزن، وإنما من شدة الجحود، قاسية تلك الأم على الرغم من طبيعة الأمومة الناطقة بكل معانى الحب والدفء، والرعاية، والحنان، لكنه الغباء الذى يسيطر على عقول الأباء والأمهات الذين يتناسون أصلهم الأصيل من العطاء والرحمة؛ فإذا بهم قساة القلوب، غلاظ الطباع مع أبنائهم وبناتهم، ومنهم من يميل إلى ولد دون أخيه حتى يشعر المعروض عنه بأنه ربما يكون لقيطاً، وجده هذان الوالدان أمام باب مسجد، أو فى خرابة، وربياه لوجه الله- تعالى- وليس على الوجه الصحيح، وإنما على ما قسم، أى يرحمانه حيناً، ويعذبانه كثيراً؛ فهو يسأل نفسه دائماً: لماذا أنا؟ وهذا من قديم موجود، ألا ترى إلى قول الشاعر:

وإذا تكون كريهة أدعى لها وإذا يحاس الحيس يدعى جندب

وجندب هذا أخوه، وقد جرت عادة أمه أنه كلما حدثت مصيبة أو كارثة دعته هو، وإذا أعدت طعام الحيس (مثل العصيدة) دعت أخاه جندباً، فهو يتعجب لذلك، فلو أن أمه دعته ودعت معه أخاه عند المصائب، وعند الطعام لما تعجب ولو أنها دعتهما عند

www.ibtesama.com

المصائب، ولم تدعهما عند الحيس ولا عند غيره من صنوف الطعام، وأكلت وحدها لما كان هناك من عجب أيضاً، إنما العجب من هذه التفرقة.

وقد حكت لى شابة جامعية بأنها ابنة وحيدة مات عنها أبوها، وعن أخويها وأمها، وأن أمها تعاملها معاملة لم تصل إلى مستوى الخادمة فهى فعلاً خادمة، وقد كان بوسعها أن تكون خادمة سعيدة، لو أحسنت إليها أمها. وأحسن إليها أخواها، ولكنها خادمة تعسة حيث تبذل قصارى جهدها دون نظرة امتنان، أو كلمة شكر، تقول إذا عطس واحد من أخوى قامت الدنيا عند أمى ولم تقعد حتى تذهب به إلى طبيب، وتأتيه بالدواء، وتسهر على راحته، وتأمرنى بأن أكون تحت قدمه، وإذا مرضت أنا بأشد ألوان المرض، وتكسرت عظامى، ونمت طريحة الفراش، لا أقوى على الحركة قالت: قومى يا مقصوفة الرقبة، ولم تصنع لى كوب ليمون ولم ترفع يديها إلى السماء تدعو الله- عز وجل- لى بالشفاء مثلما تفعل مع أخوى إذا مرضا، أقول فى نفسى: حتى الدعاء عزيز على أمى أن ترفع صوتها به لتسمعنى وتشعرنى بأنى ابنتها، وإذا جلسنا معاً إلى الطعام فالويل لى إن لم أضع الماء البارد أمام أخوى، وإن لم ألحظ أن الإناء الذى أمام أحدهما أوشك أن يكون فارغاً، وعلى أن أغرف له من جديد، وذات مرة وقد كنت متعبة مجهدة قلت: هلا ساعدنى أحدكما فى غسل الأوانى؛ فصاحت أمى قائلة: أبك جنون يا بنت! قطع الله لسانك يا غبراء، يا ملعونة، يا كذا، وأخذت أبكى بمرارة، وغسلت المواعين بعد أن سمعت من أمى سوف تغسلينها ورجلك فوق رقبتك، وقد صارحتها يوماً بأننى لست ابنتها؛ فضربتنى ونهرتنى فسألتها بالله إن كنت حقاً ابنتها فلم تعاملنى تلك المعاملة السيئة فلم تجد جواباً.

www.ibtesama.com

أحلام يسيرة دونها أهوال

من أجمل ما روى عن عمر-ﷺ- أن رجلاً قال له: لقد طلقت امرأتى اليوم ألف مرة، فقال له عمر: نكتفى من الألف بثلاث، ولن ترجع إليك، ومعروف أنه-ﷺ- كان يمضى الطلقات الثلاث فى المجلس الواحد ثلاثاً، كما تساهل الناس فى مسألة الطلاق وقد ورد عن ابن عباس- رضى الله عنهما- أنه كان يشدد على من طلق امرأته ثلاثاً، قائلاً له: إن الله-تعالى- أعطاه فرصة أن يطلق مرة، ثم يعود، ثم يطلق، وقد يندم، فيعود، فلم يضيق على نفسه، ويبت طلاقها مرة واحدة؟

ويسير جداً أن يرجع المطلق، أى يراجع زوجته بعد الطلاق الأول، أو الثانى، ولكن إذا طلق بعد هذا فدون ذلك أهوال، إذ إنها لا بد أن تتزوج غيره، قال الله تعالى: **﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾**.

وهذا هو المعروف عند كثير من الناس بالمحلل، ولا شىء اسمه محلل، إنما الشرع على أنها تتزوج من بعده بنية استمرار العشرة بينها وبين هذا الأخير، لكن شاءت الظروف والأقدار أن تطلق منه، أو يموت عنها، وبعد أن تستوفى عدتها من طلاق، أو من وفاة يصح أن ترجع إلى هذا الأول الذى طلقها ثلاثاً، فبت طلاقها، ولكى أشرح هذه العبارة أقول لو أن رجلاً اسمه خالد طلق زوجته زينب ثلاث مرات فإنها لا تحل له، بعد هذه الثلاث، وانقضت عدة زينب، فتزوجت من بعده رجلاً اسمه عبدالله، وعاشت معه، بنية الأبد، لكن عبدالله طلقها. ولم يراجعها، حتى انقضت عدتها، وعادت إلى بيت أهلها، وعلم خالد أنها طلقت؛ فقال

www.ibtesama.com

الحمد لله، والله لقد ندمت على طلاقها منذ عشر سنين، وهاهى الآن قد تزوجت ثم طلقت، ولم ترجع إلى زوجها، وأنا أحب أن أتزوجها وأرسل إليها برغبته هذه، وعقده العزم على أن يقيم معها حدود الله، وألا يسئ عشرتها، وألا يبخل عليها وكذا وكذا، فمن الجائز شرعاً أن تقبل، وإذا قبلت ورجعت كانت هذه الزيجة كأنها التى كانت أول مرة، أى أنه إذا دخل بها، ثم طلقها كانت هذه هى الطلقة الأولى، لا الرابعة.

ولا بد أن يدخل بها الزوج الثانى عبدالله، لما رواه البخارى وغيره من حديث امرأة رفاعة، التى طلقها وبت طلاقها، فتزوجت من بعده عبدالرحمن بن الزبير، وأرادت أن ترجع إلى زوجها الأول رفاعة؛ فقال لها-ﷺ- لا حتى تزوقى عسيلته، ويزوق عسيلتك، وعبر عن البناء بالعسل بجامع الحلاوة فى كل، هذا هو صحيح الدين.

وانظر إلى الرجعة كم هى سهلة يسيرة إذا كانت الطلقة هى الأولى أو الثانية ولم تنقض مدة الأشهر الثلاثة عليها، فإن انقضت هذه المدة أى مدة العدة، وكانت الطلقة الأولى، أو الثانية فتصح الرجعة ولكن بعقد جديد، ومهر جديد، وبرضاها، أى أن الأمر سهل على وجهه ويزداد صعوبة كلما مر الوقت، وتكون الأهوال إذا تجاوز المرء الحد، وبت الطلاق، عندئذ تصبح الرجعة التى كانت سهلة يسيرة أمراً صعباً، فما الذى أدراه أنها سوف تطلق، أو يموت عنها، وهل يشعر بشىء من السعادة والسرور وقد نامت زوجته (التى كانت زوجته) فى حضن رجل آخر، وعاشرها وباشرها وقد تحسر قيس عندما تزوجت ليلى، وخاطب زوجها بقوله:

www.ibtesama.com

بربك هل ضممت إليك ليلـــى وهل قبلت قبل الـــصبح فاهـــا

وكان لنا زميل أديب طريف كلما ذكر هذا البيت قال ضـــاحكاً على لسان زوج ليلى:

نعم نعم، يا قيس، وأكثر من هذا ورب الكعبة

فما الذى أدى إلى هذه الأهوال؟

إنها الرعونة فى استعمال الطلاق، والحمق الذى يسيطر على عقل الرجل أو المرأة، أو على كليهما، حين يتصور أن فى الطلاق حلاً، ومعالجة لغضبه وانفعاله، فلا صبر عنـــده إذ يطلـــق لأدنـــى ملابسة، ولا صبر عندها إذ تسأله الطلاق لأول صدمة، أو مشكلة، والناس خصوصاً الشباب فى حاجة إلى ثقافة طلاق كما أنهم فـــى حاجة إلى ثقافة زواج يحقق المودة والرحمة فى ظلال سكن جميل تطيب فيه الأيام، وتتحقق فيه الأحلام.

أحلام يسيرة دونها أهوال

فقد الثقافة الدينية الصحيحة:

قال لى: خطبتها وهى جامعية حاصلة على تقدير "ممتاز" مع مرتبة الشرف، وصادف أن صليت فى بيتهم العشاء، وسرنى أنها جاءت خلفى، وصلت ورائى، فاستشعرت كـــل معـــانى الـــسعادة، وخطر ببالى لمدة ثوان أننا تزوجنا، وأنجبنا أطفالاً بررة صـــالحين وأنهم الآن جميعاً ورائى معها، وأنا إمامهم، وجلست فى الركعـــة الأخيرة، للتشهد، وبينما أنا فى التشهد لمحتها مرت من أمـــامى- على مسافة لا تقطع على صلاتى، وبعد أن سلمت سألتها: هل كنت

www.ibtesama.com

تصلين ورائى أم أن ذلك طيف ألم برأسى؟ فقالت: نعم، صليت وراءك، قلت: كيف، وأنا لم أزل أتشهد ولم أسلم؟

قالت: يبدو أن قراءتك بطيئة، أنا انتهيت، وسلمت هل من اللازم أن أظل قاعدة حتى تنتهى أنت! قلت: طبعاً، قالت: لا أدرى، إن الذى أعرفه أن الذى يفرغ من الصلاة يسلم، ولا ينتظر.

فسألتها: هل شاهدت المصلين فى المسجد إذا انتهوا سلموا وخرجوا، وتركوا الإمام؟

قالت: هذا فى المسجد، ونحن فى البيت، وأعتقد أن هناك فرقاً بين المسجد والبيت؛ فقلت: والله، ليس هناك فرق بين المسجد والبيت، فالجماعة هى الجماعة فى كل مكان.

ويعلم الله أن ورقاً من شجرة حبى لها قد تساقط؛ وجف حلقى وقلت: سبحان الله، هذه جامعية، والأولى على دفعتها ولا تعرف كيف تصلى الجماعة.

وأخبرنى آخر أن زوجته كانت تدركه فى الصلاة، فإذا سبقها بركعة صلتها وحدها وراءه بسرعة ثم التزمت فى الاقتداء به، يعنى أنها لا تعرف طريقة الجماعة أيضاً حين تكون مسبوقة، وأنه ظل يعلمها كيفية صلاة المسبوق سنوات ولا يدرى إن كانت قد تعلمت أم لا، كل ما استطاع فعله أن يغرم عليها أن تصلى معه من أول تكبيرة الإحرام، حتى لا تكون مسبوقة.

وفى هذين المثالين أقول: إن المأموم لا يسبق الإمام فى ركوع ولا فى سجود، ولا يساويه، ولا يخرج من صلاته قبل أن يسلم الإمام أولاً، وصلاة المسبوق طريقها أن يكبر المأموم المسبوق تكبيرة الإحرام، ثم يلتزم الاقتداء بالإمام فى أى وضع

www.ibtesama.com

كان، فإن أدركه ساجداً سجد، أو قاعداً قعد وتبعه حتى ينتهى، فإذا سلم قام وصلى ما فاته من ركعة أو أكثر، وتحتسب له ركعة إذا أدركه فى الركوع، ولا تحتسب له ركعة إذا أدركه وهو ساجد، أو قاعد بين السجدتين، وهكذا.

انظر إلى الأمر كم هو سهل، ولكن دونه أهوال من فقد الثقافة الدينية الحقيقية، والمأساة أن الذين يفتقدون تلك الثقافة كما ترى من حاملى الشهادات العليا فى التخصصات الدقيقة الصعبة، فهموها وتفوقوا فيها، وعز عليهم أن يفقهوا دينهم، لا سيما الصلاة التى هى عماد الدين. وركن الإسلام الذى لا يسقط إلا بزوال العقل. فعلى المسلم أن يصلى مقيماً ومسافراً، وصحيحاً ومريضاً (قاعداً أو مضطجعاً) حتى فى ميدان القتال (صلاة الخوف) يسير أن تصلى، فى جماعة، ويسير أن تصلى مسبوقاً، ولكن دون ذلك أهوال هى فقدك المعرفة، وهى- جد يسيرة- إذا صدقت نيتك، ورغبت فى المعرفة.

ويسير عليك أن تتوضأ قبل الصلاة بوقت كاف حتى تدرك أول الوقت، وأول الوقت فضيلة عظيمة، سئل النبى-ﷺ- عن أحب العمل إلى الله؛ فقال لسائله: الصلاة على وقتها، وهناك الكثير من الناس بوسعهم أن يدركوا أول الوقت، وقد سمعت من أكثر من واحد، وقد دعى إلى إقامة الصلاة فى أول وقتها، وكان يجلس مع داعيه فى محل بالقرب من زاوية صغيرة اعتاد جليسه أن يصلى فيها؛ فاعتذر لأنه غير متوضئ، فلما قال له: إن بالزاوية مكاناً للوضوء قال: إن شاء الله أدرك الوقت فى البيت حتى أتوضأ على راحتى، وأخلع ملابسى، وكذا، وليس به مرض يمنعه من المحافظة على وضوئه، فليس سلسل البول. ولا يشكو خروج ريح

www.ibtesama.com

متكرر، فما الذى يمنعه أن يخرج من بيته على وضوء، والوضوء سلاح المؤمن، وقد روى أن عرش الله- عز وجل- اهتز لموت سعد بن معاذ-ﷺ- لأنه كان لا ينام إلا على وضوء، ولا يمنع المرء من إدراك أول الوقت إلا كونه غير متوضئ، فلو كان على وضوء لصلى فى أى مكان حيث أدركته الصلاة: فقد جعلت الأرض للنبى ومن آمن به مسجداً وطهوراً.

أحلام يسيرة ولكن دونها أهوال

١- ثقافة السوء:

ذكر القرآن الكريم دعاء الكفرة الفسقة، حينا قالوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم" كان من اليسير أن يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه ووفقنا إلى إتباعه، لكن دون هذا اليسير أهوال من ثقافة السوء ألا ترى إلى ما شاع بين الناس من الدعاء على أنفسهم وأهلهم وأموالهم بالسوء من العمى، والشلل، والبرص، والخرص، وغير ذلك، ثم ألا ترى إلى تنشئة الأطفال على ثقافة السوء التى منها ذلك المتوارث البغيض: من يكذب يدخله الله النار ما فكر أحدنا أن يقول لطفله: من يصدق يدخله الله الجنة وألا ترى هذا الخطيب الذى يعتلى المنبر أيام الجمعة وكأن المنبر الذى اعتلاه قطعة من الجمر تلهبه، فهو لا يخطب إلا فى النار الموقدة التى تطلع على الأفئدة، ويصلى بيوم تقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد، ويكررها حتى يبكى، ويبكى الناس.

ناهيك بالمبالغة فى دعاء السوء الذى لا يعدل بحال من الأحوال ما اقترفه المدعو عليه، بأن يمد طفل مثلاً يده إلى شىء

www.ibtesama.com

صنعته أمه، فإذا بها تدعو عليه قائلة: قطع الله يدك، ولم يعهد فى التاريخ ولا فى الشرع مثل هذا الدعاء إلا على من قتل مسلماً بيده أو سرق، أما الطفل الذى لا صبر عنده. فإذا به بمجرد أن يمد يده إلى شىء يأكله فلا يدعى عليه بحال، لا بقطع يد، ولا بقطع إصبع، وإنما الواجب علينا أن نعطيه قبل أن يسأل، فقد كان الناس يأتون رسول الله-ﷺ- ببواكير فاكهة المدينة، فيفرح، ويتذوقها ويدعو، ويعطى بغيته أصغر من فى مجلسه، كما روى مسلم فى صحيحه، وقال الإمام النووى فى ذلك: لأن الأطفال لا صبر عندهم.

ومن اليسير أن تتأسى به-ﷺ- فى ذلك وفى غيره من السنن الراقية التى تغير وجه الحياة من قبح إلى حسن، أى من اليسير أن نعطى الطفل مما يراه ويتطلع إليه قبل أن ينفطر، وينفلق كبده؛ لأنه لا صبر عنده، لكن دون ذلك أهوال من ثقافة السوء، كما أنه بوسع الزوجة أن تناول زوجها أو ولدها كوب ماء، وقد سمعت صوت غصة فى حلقه وهو يأكل (زور) لكنها تنتظر حتى يقول (ماء) بصوت بغيض، فتناوله إن لم تقل له: هاهو ذا الماء أمامك، وهو منك قريب، ألا تراه، فإذا به بعد أن يشرب، وتزول الغصة يضربها أو يقوم من على طعامه دون أن يكمل وجبته، ومن اليسير أن تتعطف على رجل توقفت سيارته وأنت تراه يدفع بها وحده ويمسك بعجلة القيادة ويحاول أن ينطلق موتورها، لتدفعها معه أنت وغيرك لكنك لا تتعطف إلا إذا ناداك، ورجاك وكثير من الناس لا يفعلون أدنى الخير إلا إذا سئلوا، ويعللون ذلك بأن سائلهم ربما ضايقه ذلك؛ فهو حر، وهو صاحب فلسفة، قد يكره مثلاً- وهو والله لا يكره- أن يعينه أحد فى دفع سيارته المعطلة، وقد تقول زوجة لزوجها الذى أصيب بالغصة، وسألها الماء: إنك قلت بأنك لا تحب شيئاً من يدى، وقد قال ذلك

www.ibtesama.com

فى لحظة انفعال منذ عشر سنين، توارت كل الحسنات، وتنوسيت، وتذكرت هذه العبارة السيئة، وكان من اليسير عليها أن تنساها أو تتناساها لكن دون ذلك أهوال من ثقافة السوء التى تسيطر علـــى كثير منا، فلا يستطيع فعل الخيرات، وهى ميسرة.

بل إن من الناس من يعتذر وهو كاذب، كالذى يدعوه صاحب السيارة المعطلة إلى معاونته فيقول إن بذراعى داء (أبعد الله عنك كل داء) وكالذى يعتذر لداعيه إلى رفقته فى صحبة طيبة إلى فعل خير بأنه مريض، أو مشغول، أو أن أحداً من أصهاره قادم إليه فى ذات الوقت الذى يدعوه فيه، وهو (لا أراه الله) غضوب، ويـــصنع من الحبة قبة، وقد ينخرب البيت إن لم يجده فـــى انتظـــاره، وأن الدنيا سوف تذهب برمتها، وهو أى داعيه لا يرضى له الـــضرر، وكان بوسعه أن يلبى دعوته، وأن يجمع بينها وبين استقبال زائره إن كان فعلاً هنالك زائر، لكنها ثقافة السوء التى تحول دون تحقق الحلم اليسير.

أحلام يسيرة دونها أهوال

٣- ثقافة السوء (ذكر السيئات).

ما أسهل أن تذكر الحسنات كما تذكر السيئات، لكن دون ذكر الحسنات أهوال من ثقافة السوء، التى تجعل ذكر السيئات يطفـــو فوق الذاكرة، ويتغلب على ذكر الحسنات، حتى يصير ذلك طبعاً فى الإنسان، فلا يذكر الحسنات، وإنما يـــذكر الـــسيئات دائمـــاً وهـــذا يتجاوز كافرة العشير، التى تذكر الـــسوء عنـــد الغـــضب، أى أن الزوجة عند غضبها من زوجها تقول: والله ما رأيت منـــك خيـــراً أبداً، مع أنها بلا شك رأت منه خيرات، وهذا الـــذى اعتـــاد ذكـــر

www.ibtesama.com

السيئات يتجاوز تلك المرأة الغضوب التى تقول: والله ما رأيت منك خيراً أبداً.

وقد دخل ابن من أبناء أبى محجن الثقفى على معاوية؛ فقال له معاوية: أبوك الذى يقول:

إذا مت فادفنى إلى جنب كرمة ... تروى عظامى بعد موتى عروقها

ولا تدفننى بالفلاة فإننى ... أخاف إذا ما مت أن لا أذوقها

فقال له ابن أبى محجن: لو شئت ذكرت أحسن من هذا من شعره؛ فقال: وما ذاك؟

قال: قوله.

لا تسأل الناس عن مالى وكثرته ... وسائل الناس عن حزمى وعن خلقى

القوم أعلم أن من سراتهمو ... إذا تطيش يد الرعديدة الفرق

قد أركب الهول مسدولاً عساكره ... وأكتم السر فيه ضربة العنق

أعطى السنان غداة الروع حصته ... وحامل الرمح أروبه من العلق

فقال له معاوية: لئن كنا أسأنا القول لنحسنن لك الصفد وأجزل جائزته، وقال: إذا ولدت النساء فلتلدن مثلك (الاستيعاب ٣١٢/٤).

وما كل الناس مثل معاوية-ﷺ- يعتذر إذا أساء القول، ويحسن جائزة من أساء إليه، أو إلى أحد من أهله، وإنما يزداد كثير من الناس إساءة فوق الإساءة فمن الناس من إذا قال لك فى

www.ibtesama.com

امرئ سوءاً فذكرته بشيء جميل فيه ذكر لك سوءاً أخر، أو فند ذلك الجميل لك حتى يبدو لك أنه سوء، ولكنه ألبسه ثوب الجمال، كالرشوة التى يلبسها الناس ثوب الهدية أو أقسم لك بالله أن هذا المخلوق لا حسن فيه أبداً وأنك- والعياذ بالله- لا تعرف الفرق بين الحسن والسوء، فأنت رجل طيب ساذج، يخدعك بهذه الكلمات، حتى تغتر بمدحه إياك، وتقول له: والله لقد صدقت، يبدو أننى لا أعرف شيئاً، والعلم عند الله عندئذ يقول لك: الله عليك، والله يشهد إنه كذاب منافق، لا يحب الله- تعالى- ولا رسوله- ﷺ- ولا المسلمين، إنه ضرب أباه، فيقول:

أعوذ بالله

- وأهان أمه؛ فتقول: لا حول ولا قوة إلا بالله
- وأجر أخته عرضها لأجنبى؛ فتقول: الستر يارب، ألطف يارب.
- طبعاً، فما تظن فى هذا المال الكثير الذى عنده؟
- إنه يعمل فى تجارة لعب الأطفال، وهى غالية.
- هذا هو الظاهر، وهل تحقق تجارة اللعب كل هذه الثروة يا سيدى، إن تلك التجارة ما هى إلا ستار؛ فتقول يا ستار!
- ولو أردت أن أزيدك زدتك، فيقال- يا رب احفظنا- إنه اتخذ من هذه التجارة سبيلاً إلى التعرف على النساء الجميلات اللاتى يأتين بأطفالهن إلى دكانه وهو ابن جنية، يعرف اللعوب منهن، والتى تأتى من أجل شيء آخر غير شراء لعبة لطفلها؛ فتقول: وما هذا الشيء؟ فيقول لك: ألا تعلم بأنه قواد؛ فتشهق شهقة تكاد روحك تخرج فيها وتضرب كفاً بكف، وتذكر قائل السوء بأن هذا الرجل قد حج البيت واعتمر، ولا تفوته صلاة الفجر

www.ibtesama.com

فى المسجد، فيرد عليك قائلاً: إنما يفعل هذا حتى لا يسئ الظن به أحد، لكن الحقيقة... فإن بادرته بقولك: الله يعلمها قال لك: وأنا كذلك أعلمها، حلم يسير أن يذكر الحسنات لكن دونه أهوال من ثقافة السوء.

أحلام يسيرة دونها أهوال

٣- ثقافة السوء.

ما من شك فى أن الإنسان بطبعه يحب أن يكون صاحب فضل على الآخرين، ويحب أن يشكره الآخرون الذين نالوا من خيره وعطائه وفى الصحيح يقول رسول الله-ﷺ-: "من لا يشكر الناس لا يشكر الله" فجعل شكر الناس من شكر الله- عز وجل، وذلك لأن فى الناس من يشجعه الشكر على مزيد من فعل الخيرات، والإسلام دعوة إلى فعل الخيرات، واجتناب المنكرات.

وكثير من الذين نفعل الخير معهم لا يشكرون، وكان من اليسير عليهم أن يشكروا من أحسن إليهم، لكنها ثقافة السوء التى هى بمثابة الأحلام اليسيرة التى دونها أهوال من تلك الثقافة السيئة، يقولون: وماذا قدم لنا فلان؟ فإن قيل لهم: قدم الكثير، قدم كذا وكذا وكذا... قالوا: وهذا بالنسبة إلى ما عنده شىء تافه.

كأنهم شركاء له، وعليه أن يدفع لهم نصف ما رزقه الله- عز وجل- بالتمام والكمال، ويعلم الله أنه حتى لو أعطاهم نصف ما عنده ما رضوا؛ لأن نفوسهم طبعت على الجشع والطمع وحب الزيادة، ولن يشبعهم شىء، ولن يقنعهم شىء. فقد توغلت فيهم تلك الثقافة السيئة من البغض الشديد عند المنع، ومن البغض الأقل عند العطاء، ففى قلوبهم مرض ألا ترى إلى قول الله-

www.ibtesama.com

تعالى- فى المنافقين: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾.

والتعبير بـ"إذا" الفجائية هنا له مدلوله الكاشف عن حقيقة تلك النفوس المريضة بداء الطمع والجشع، وعدم الشبع، تلك التى لا تعطى صدورها فرصة للتنفس من صافى الهواء، وإنما تهب بالأذى إذا منعت العطاء، وتسخط عندها، وتنطق الكفر، وتعبر عن استياء شديد، وفحش كامن فيها أشد.

والرضا من أيسر الأحلام ولكن دونه أهوال من ثقافة السوء.

وكذلك هنالك من الأغنياء القادرين من يتصدق ولكنه يبطل ثواب صدقته بالمن والأذى على من تصدق عليهم، ولديه من العبارات نحو "لحوم أكتافكم من خيرى.. ولولا عطائى لكم لكنتم من الشحاذين والسائلين الناس على أبواب الجوامع، والمستشفيات، أو لمتم جوعاً" بل إن منهم من يشير إلى ثوب الفقير أمام الناس قائلاً له: أنسيت أن هذا الثوب الذى يستر عورتك من خيراتى عليك، وإحسانى إليك، ولولاى ما ارتديت مثله؛ فإن مثلك لا يرى ذلك بعينه إلا متفرجاً، يا ابن كذا وكذا ثوب امرأتك التى تتزين فيه لك، وتتبختر فيه بين الناس، مدعية أنها بنت ناس، أليس ثوب زوجتى الشريفة العفيفة بنت الذوات، وكذا ما على ولدك من ثياب، فى المدرسة وغيرها، إننى كاسيك، وكاسى زوجتك، وأولادك، يا كذا، يا ابن كذا، يجرح شعوره بل يقتل شعوره أمام الناس.

والله عز وجل- يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى﴾.

www.ibtesama.com

ويقول عز وجل- قول معروف ومغفرة خير من صدقه يتبعها أذى، جعل الله- تعالى- القول المعروف الطيب خيراً من الصدقة التى يتبعها أذى، لما فيها من إساءة إلى ذلك المسكين الضعيف، الذى يقدر الإسلام مشاعره، ويحفظ عليه وجدانه، ومن ثم جعل له حقاً فى مال الغنى، قال الله- عز وجل-: ﴿فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ . لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾. فى آية المعارج، وفى آية الذاريات: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾، وفى آية البقرة: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى﴾. وفى آية الإسراء: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾. من أجل ذلك كان على المتصدق والمحسن أن يغلف صدقته وبره وإحسانه بحصن حصين من تقوى الله- عز وجل- بأن يكون عف اللسان، وقد ورد فى الكرام بحق الذين لا يؤذون الناس أن الواحد منهم كان إذا سئل أعطى ببهجة وسعادة كأنه هو الذى يأخذ، لا الذى يعطى، وذلك لأنه يعلم ما عند الله- تعالى- من ثواب عظيم للمتصدقين المحسنين، ألا ترى إلى قوله تعالى فى آيات سورة الليل: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى . لا يَصْلاهَا إِلا الأَشْقَى . الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى . وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى . الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى . وَمَا لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى . إِلا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى . وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾. فمن ذا الذى يرضيه أن يرضيه الله برضاه العظيم، فلا يمن ولا يؤذى.

أحلام يسيرة دونها أهوال

٤- ثقافة السوء.

كثير من الناس يقدم الإساءة على الإحسان، يبدأ بالتهويل والتخويف، وهو ينوى أن يحسن، وينوى أن يعفو، لكنه يؤخر ذلك، ويقدم التهويل، يقول لمن نوى العفو عنه: سوف أقطع

www.ibtesama.com

رقبتك، تعال يا مجرم، يا مسيء، يا كذا، أما تعرف أننى أنوى أن أحبسك، وأن أضعك وراء الشمس، وبعد أن يفزعه، ويرعبه، يقول له: لكننى تذكرت أباك وأنه كان رجلاً طيباً، مسكيناً، ولذلك عفوت عنك.

وما كان أيسر أن يزف إليه روح البشرى، ثم يعاتبه عتاباً خفيفاً، لا يستعصى فيه، فذلك منهج الإسلام، لكن دونه أهوال من ثقافة السوء، قال الله- تعالى-: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾.

فانظر كيف بدأ ربنا تعالى- بالعفو، ثم ثنى بالعقاب الخفيف، وفي آيات سورة الحجر يقول الله- عز وجل-: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾. فبدأ عز وجل بالحديث عن مغفرته ورحمته، وثنى بذكر العذاب.

وكذلك قوله سبحانه في آية التحريم: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾.

ولهذا السلوك السيء امتداد فى حياتنا الاجتماعية، أعرف رجلاً غضبت امرأته، وكالعادة لحقت ببيت أهلها، وقضت أياماً هنالك حتى اتصل بها، وأعرب عن رغبته فى زيارتهم من أجل أن تعود معه وقبل أن يحين موعد وصوله إلى بيت أبيها أعدت حقيبتها، وكانت على أهبة استعداد للعودة معه، وبمجرد أن دخل البيت هب فيه الصغير قبل الكبير، وانهال عليه بعضهم بالسب والقذف وهم بعضهم بضربه، وقالت أمها من وراء جدار: هل وصل الخسيس! حتى خرج بدونها قائلاً: استعدوا لاستقبال ورقة

www.ibtesama.com

الطلاق، وقد عنف بعضهم بعضاً، وخطأ بعضهم بعضاً وحاولوا الاعتذار، ولكن بعد فوات الأوان.

أما كان يحسن أن يستقبل استقبالاً حسناً كأنه ضيف، وفى الحديث: ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، وأن يرى حقيبة امرأته أمام عينيه، لتكون لسان حال، يقول له: سوف تعود معك، حتى يكون مهيئاً نفسياً للعتاب الخفيف، وللاعتذار عما كان منه، إن كان قد حدث منه شيء، كان ذلك يسيراً جداً، لو أحسن الناس، لكنها الأهوال التى تعترض يسير الأحلام، وتلك الأهوال تكمن فى ثقافة السوء، التى تسيطر على عقول كثير من الناس، ومن ثم على قلوبهم، فهم لا يحسنون والإحسان منهم قريب، ولكن ماذا نفعل، وماذا يفعل هؤلاء الذين غلبت عليهم شكوتهم، فهم يترددون بين الإحسان الذى الأصل فيه القرب، ولكنه بعيد بالنسبة وبين الإساءة التى الأصل فيها أنها بعيدة، ولكنها قريبة منهم لأنهم أدمنوها، واعتادوها؛ فأصبحت منهم بمنزلة الدم فى العروق، ولن تخرج منهم إلا إذا عرفوا ذلك، وقصدوه بتوبة نصوح لوجه الله- تعالى- القائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾.

وليست التوبة كذلك من الأحلام العَسيرة إلا عند الذين غلبت عليهم شكوتهم، وأثروا السوء على الحسن، والغباء على التفكر، وأعرف رجلاً كان عائداً من سفره، واتجه أول ما اتجه إلى والدته التى لم يرها، ولم تره منذ عامين كان يحمل لها أغلى هدية مما جاء به إلى زوجته وأولاده وأخواته وغيرهم، وأول ما دخل عليها لوت وجهها عنه، وقالت: الآن افتكرت أن لك أماً، وأخذت تسرد عليه ما كان منه قبيل سفره، من إساءة كما توهمت، وأخذت

www.ibtesama.com

تشكو زوجته القاسية قائلة له: وطبعاً أنت الذى قسيتها على أمك، وأمرتها بقطيعتى، وعدم زيارتى، حتى ولدك؛ إذ لا شك أنهم جميعاً يسمعون كلامك حاول بلطف الابن البار أن يحتضنها لكنها فرت منه فرارها من الأسد، أو من الأبرص؛ فأخرج هديتها، وحاول أن يدنيها منها، فقالت: أوعه، ما هذا، تراك أتيت لأمك بأرخص الهدايا، إن آخر من تفكر فيه أمك، أليس كذلك، فلما هم بالانصراف غاضباً بكت واحتضنته، وأقسمت بالله عز وجل أنها تحبه، وأنه سويداء قلبها وأنه وأنه أما كان ذلك يسيراً أول اللقاء، لكن ماذا نفعل فى الأحلام اليسيرة التى دونها أهوال.

أحلام يسيرة دونها أهوال

٥- ثقافة السوء.

رفع الصوت كما يقال قبل أن يغلب صاحبه من ثقافة السوء، وهو كما قال العلماء من الفواحش، والله- عز وجل- حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وقد تحدثت فى هذا الكتاب عن الجار الذى أساء إلى جاره الذى زاره راجياً أن يخفض من صوت الكاسيت حتى يستطيع أن يعيش حياة هادئة بلا كدر؛ فالرجل يريد أن ينام، ويريد أن يعالج قضايا أهله، ويريد أن يقرأ، وأن يكتب وأن يمارس نشاطاته ولكن فى هدوء، وقد كان ذلك حلماً يسيراً لكن دونه أهوال من سوء الجيرة، وهنا أقول إن رفع الصوت بلا داع من ثقافة السوء، حتى فى الصلاة بمكبر الصوت، والإمام وراءه ثلاثة أو أربعة من المأمومين، وبوسعهم أن يسمعوه بدون مكبر للصوت، فما الداعى إلى استعمال مكبر الصوت فى الصلاة. والله- عز وجل- يقول: ﴿وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلا﴾.

www.ibtesama.com

يجوز أن يرفع الآذان من خلال مكبر الصوت، وكذا الإقامة لأنهما لإعلام الناس بدخول الوقت، ولكن ما معنى أن يصلى الإمام من خلال مكبر الصوت، ولا ضرورة تدعوه إلى ذلك، ويمكنه أن يصلى من خلال سماعة داخلية إذا كان وراءه من الصفوف الكثير، ولا يستطيع آخرها سماعه إلا عن طريق تلك السماعة فهى الضرورة، لكنها الرغبة فى استعراض الأصوات، ومحاكاة المغنيين، والبائعين الجائلين، وغيرهم ممن يستعملون مكبرات الصوت وقد كان فى المدينة المنورة كما ذكر السهيلى فى الروض سبعة مساجد منها المسجد النبوى الشريف، كلها تصلى بآذان بلال فيه، وكل يقيم الصلاة فى مسجده، وتلك فكرة غائبة تماماً عن واقعنا فإن كل زاوية يؤذن فيها، وبين الزاوية والزاوية أشبار معدودة عشرات المساجد يسمع من فيها آذان بعض، والكل يصر على رفع الآذان، ويحاول أن يستشهد بدعوة النبى-ﷺ- إلى أن يؤذن الفرد وحده إن كان فى صحراء، وهذا لا يصح لهم شاهداً؛ لأنه لا يسمع آذان أحد بالقرب منه، ولو سمعه للبى نداء الله، فصلى عنده، أو صلى فى مكانه دون أن يؤذن.

ولعلك قرأت ما ذكره النووى فى شرحه صحيح مسلم من أنه يجوز أن يؤذن أكثر من واحد فوق سطح مسجد واحد بشرط عدم تشويش أحدهما على الآخر، فإن حدث التشويش فلا يجوز، وقد صارت الحياة برمتها دنيا من التشويش فى المساجد، وفى الزوايا، وفى الشوارع، وفى البيوت، أصوات عالية تنبعث من كل مكان، حتى الدعاء تجده صرخات ولا خلاف بين العلماء فى أن رفع الصوت بالدعاء من الاعتداء فيه، وقد قال الله- عز وجل- ﴿**ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**﴾. ومعنى ذلك أن رفع الصوت بالدعاء يجعله غير مستجاب، وما أيسر أن يخفض الداعى صوته عند الدعاء، يقيناً منه أن الله- تعالى- يعلم السر وأخفى،

www.ibtesama.com

راغباً أن يتقبل الله منه، وأن يجيب دعاءه، وقد رأى النبى-ﷺ- بعض الصحابة يرفعون أصواتهم بالدعاء؛ فقال لهم: اربعوا على أنفسكم؛ فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، فأين غابت تلك الشواهد الكريمة، وكيف توارت عنا، وصرنا نعمد إلى ما يخالفها جهاراً نهاراً، فشت فينا ثقافة السوء، فصرنا نسمع نجوم الدعاء الذين ألفوه وحبكوه بالسجع، ورفعوا أصواتهم به، وكأنه لا يسمع إلا إذا كان عالياً، وقد قال العلماء فى سبب نزول قول الله- تعالى- ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**﴾. إن الناس سألوا سيد الناس-ﷺ- هل الله بعيد فنناديَه، أم قريب فنناجيه، فنزلت، فهلا تدبرنا ما نزل، وهلا ربطناه بالسؤال الذى كان سبباً فى نزوله؟

فحين يقول ربنا- تعالى- "فإنى قريب" وحين نربط ذلك بقولهم "أم قريب فنناجيه" نفهم أن النجوى هى المطلوبة فى الدعاء، وأن خفض الصوت به منهج الإسلام وطريقته، فما الداعى إلى الصراخ بالدعاء إلى هذا الحد الذى نراه؟

وقد ثبت أن الصحابة- رضوان الله عليهم- كانوا يلحون على الله- تعالى- بالدعاء، ولا يسمع بعضهم بعضاً، فمن استفاد من ذلك؟

إن من اليسير أن تهدأ الأصوات فى كل شىء وفى كل مكان، ولكن دون ذلك أهوال من ثقافة السوء التى غلبت علينا.

أحلام يسيرة دونها أهوال

٦- ثقافة السوء (بث روح الرعب).

ما رأيت أحداً من أولى ثقافة السوء ينطق بخير إن سافر أو تحدث عن مسافر، فهو إن سافر يقول: إن جرى لى حاجة ويودع

www.ibtesama.com

قائلاً: يا عالم إن كنت سأعود أو لا أعود، وإن تحدث عن مسافر انقطعت رسائله، أو غابت اتصالاته قال: من يدرى لعل مصيبة أحاطت به، لعل شيئاً جرى له.

حتى فى الزواج، يقول ولى الفتاة وهو يخاطب خاطبها الاحتياط واجب، وأنا أمين، وهى أمانة فى عنقى ومن أدرانى أنك سوف تذيقها الويل، أو تأخذ غرضك منها، فتأكلها لحماً وترمى بها عظماً، من أجل ذلك لا بد أن توقع علي تلك الورقة، وما هى إلا حبر على ورق. ولكن لكى نطمئن جميعاً، فإذا وقع له على ما يريد قال: وربنا- تعالى- نسأله ألا يكتب عليكما شراً، واسأله أن تعيشا فى تبات ونبات، وأن ترزقا البنين والبنات، وأن يهدأ سركما، وأن وأن، ولكن بعد ماذا؟ بعد أن بث فى روح الولد الرعب، وصور له روح الحياة الوليدة على أنها عدم لا وجود، وتعاسة لا سعادة، وشقاق لا وفاق.

وأعرف رجلاً بشر بمولود، وقال له الناس جعله الله لك من الذرية الطيبة، وتعيش حتى تراه طبيباً أو عالماً كبيراً.

وبدل أن يقول أمين قال: معقولة، هل سأعيش حتى أراه كما قلتم، (هذا كلام فارغ).

والبلاء موكل بالمنطق كما قال النبى-ﷺ- أى أن الذى يقدر السوء يحدث له السوء، فقد روى أن النبى-ﷺ- زار رجلاً مريضاً، فقال له على المعهود منه-ﷺ- عندما كان يزور مريضاً طهور إن شاء الله؛ فتعجب الرجل، وقال: طهور! بل هى حمى تفور. على رجل كبير، تزيره القبور؛ فقال عليه الصلاة والسلام: فنعم إذاً، فمات من غده.

وقد زار-ﷺ- مريضاً أخر فوجده من الضعف قد صار مثل الفرخ، وعرف-ﷺ- بنور النبوة أنه قد دعا على نفسه، فسأله:

www.ibtesama.com

هل دعوت على نفسك بشيء؟ فقال: نعم يا رسول الله قلت: اللهم ما كنت معاقبى به فى الآخرة فعجله لى فى الدنيا فقال عليه الصلاة والسلام: سبحان الله، لا تطيقه هلا قلت: ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، ودعا له-ﷺ- فشفاه الله وكان هذا أكثر دعائه-ﷺ- وهو من دعاء القرآن، ودعاء القرآن الكريم أعلى الدعاء كما قال العلماء، قال الله عز وجل-: **﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ. أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا﴾**.

لكن كثيراً من الناس لا يدعو بهذا الدعاء، وإنما يدعو على نفسه، وعلى ولده، وعلى سيارته، وعلى الدنيا جميعاً، والشائع فى هذا الدعاء: الدعاء بالقطيعة واللعنة ومعنى اللعنة: البعد عن رحمة الله- عز وجل- يقولون: يلعن كذا وكذا، صار كل شيء ملعوناً خصوصاً المال الذى هو قوام الحياة، يقولون، يقطع الفلوس ويلعن الفلوس ويلعن الوظيفة وسنين الوظيفة، حتى صار كل شيء ملعوناً، وبعيداً عن رحمته تعالى، وكأنه- عز وجل- قد استجاب فصار كل شيء بالفعل بعيداً عن رحمة الله، وعن بركته ألا ترى الناس خصوصاً هؤلاء يشكون انعدام البركة ألا يفكرون فى أنهم سبب ذلك بدعائهم، وهل يريدون أن يدعوا بشيء كريه، ويجيبه الله تعالى على عكسه ومن رحمته- عز وجل- أنه لا يعجل الشر لعباده الذين يعجلون به، قال تعالى: **﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾**. لكن قد يستجاب لبعضنا إذا دعا بالسوء، لعل الباقين والأكثرين يتعظون، وقد قال-ﷺ- "لا يدع أحدكم على نفسه ولا على ولده، ولا على دابته، عسى أن تكون ساعة إجابة؛ فلا يلومن إلا نفسه".

وما أيسر أن يبث المرء فى الدنيا روح الأمل والتفاؤل والفرح بالتطلع إلى رحمة الله، ورحمة الله قريب من المحسنين ولكن هذا اليسير دونه أهوال من ثقافة السوء التى غلبت علينا.

www.ibtesama.com

أحلام يسيرة دونها أهوال

٧- ثقافة السوء (سوء الظن):

لا فرق بين سوء الكلام، وسوء الظن، كما أنه لا فرق بين حسن الكلام، وحسن الظن، فالحسن شقيق الحسن والسوء شقيق السوء .

أى ما كان أيسر أن ينطق صاحب اللفظ السئ اللفظ الحسن، ولكن دون ذلك أهوال من ثقافة السوء التى غلبت عليه، وكذلك ما كان أيسر أن يحسن الظن بالناس ولكن دون ذلك أهوال من تلك الثقافة السيئة التى سيطرت عليه عقلاً ومن ثم قلباً، فهو يسئ الظن بالناس ويقول: حتى يثبت العكس، ولو ثبت العكس ما أحسن الظن، والأصل الراسخ فى هذا الدين حسن الظن بالناس حتى يثبت العكس.

وقد ثبت أن رجلاً كان سيئ اللسان فى عهد رسول الله -ﷺ- واستأذن يوماً عليه كما روى البخارى فى صحيحه وغيره، فقال عليه الصلاة والسلام: ائذنوا له بئس أخو العشيرة، فلما أذنوا له. ودخل عليه -ﷺ- فأحسن استقباله ومشى له على المعهود من خلقه -ﷺ- فلما مضى سأل الناس رسول الله -ﷺ- عن ظاهر المفارقة بين قوله "بئس أخو العشيرة" وبين حسن استقباله إياه؛ فقال عليه الصلاة والسلام. إن شر الناس من هجره الناس اتقاء فحشه، أى أن شر الناس هم أولئك الذين لايزورهم أحد، ولا يمر عليهم أحد تجنباً لفحشهم وما عسى أن يفسر معنى الفحش الأول غير أن سوء اللقاء إذا زارهم أحد، ومن الفحش سوء النظر فى وجوه الناس، واتهامهم بالنظر الذى هو قول ربما يكون أبلغ من القول باللسان، ألا ترى إلى قول الشاعر:

www.ibtesama.com

وترميننى بالطرف أى أنت مـذنب

أى أن زوجته ترميه بطرف العين، تقول له بـالنظرة: أنـت مذنب صحيح أنها لم تقل ذلك بلسانها، وإنما قالته بنظرة عينهـا، والقول بالنظر أبلغ أحياناً من القول باللسان، وأشد علـى النـاس منه: إذ قد يكون للقول بلسان المقال تأويل آخر يصرفه من الاتهام إلى غيره، مما هو أخف، لكن حدة النظر، والارتياب فيـه شـىء فظيع مؤلم، لا يتحمله المذنب حقاً فضلاً عن البرئ الـذى ينـسب إليه الذنب، وهو منـه بـراء، إنـه يـشعر بالاحتقـار والازدراء والسخرية والاستهزاء، وليس بعد سوء الظن الذى لا دليل عليـه من فحش، إنه دعوة إلى الهجر، والنبذ، وعدم التعامل .

ومن الناس من يبتلى بتلك الثقافة السيئة فإذا بـه مـريض مرضاً نفسياً عجيباً، يكاد يشك فى نفسه، وفى ولده وفى والـده، يشك فى كل الناس، ومن كانت هذه حالته وكان هذا مرضه فكيف يعامل الناس، وكيف يختلط بهم والناس لابد أن يتـصل بعـضهم ببعض، ويعامل بعضهم بعضاً، وبسوء الظـن لا يتـسنى تعامـل ولااختلاط وكما قلت إن سوء الظن بالناس مثل قول السوء للناس، كل ذلك من ثقافة السوء التى سادت، وغلبـت، وسـيطرت علـى الفكرة، والدليل على ذلك التعبير بألفاظ العموم، نحو قول هؤلاء:

كل الناس غشاشون

كل الناس كذابون

كل الناس بوجهين

كل الناس على لؤم وخداع

كل الناس يجرون وراء مصالحهم الذاتية

www.ibtesama.com

والتعبير بـــ"لا" النافية للجنس، وهى كما ترى من اسمها دال على نفى الجنس، مثل:

لا أحد يتقى الله، ولا عذراء هذه الأيام، ولا أمل فى العثـــور على رجل صادق، ولا عالم اليوم موجـــود، ولا خيـــر فـــى أحـــد، وهكذا، أليس ذلك دليلاً على نفى الخير برمته، والطيـــب برمتـــه، والعذرية برمتها، هل يصدق أحد أن جميع الناس هكذا، وأنه لابنت طاهرة، وأنه لا أحد يصدق، ولا أحد يتقى الله وهكـــذا، هـــذا مـــن العموميات الظالمة .

وفى الحديث الشريف: "من قال: هلك الناس فهـــو أهلكهـــم" يروى بضم الكاف، ويروى بفتحها، ومعناه على الضم أنـــه أهلـــك الناس، أى أشدهم هلاكاً. ومعناه بفتحها أنه هو ســـبب هلاكهـــم، ولعل ذلك يفسره حديث الرجل الذى كان فى شدة فى قومه، فجـــاء المدينة، فدخل بستاناً، فأكل منه فرآه صاحب البـــستان، فـــضربه، وأخذ ثوبه فلما رفع الأمر إلى النبى -ﷺ- أمره برد ثوبه، وقال له: لم تطعمه إذ كان جائعاً ولم تعلمه إذ كان جاهلاً، لذلك نرى أننا جميعاً إلا من رحم الله مثل هذا الرجل فنحن سبب فى هلاك كثيـــر من الناس،

أحلام يسيرة دونها أهوال

٨- ثقافة السوء (الاستشارة الخائبة):

فى الكتاب العزيز يقول الله - تعالى- ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ ويقول عز من قائل: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾.

وفى السنة المطهرة نجد أبا الهيثم النيهانى -رضي الله عنه- النقيـــب، الأنصارى، كثير الشياه والنخل يأتى رسول الله -ﷺ- إثر وعـــد

www.ibtesama.com

وعده إياه حين أضافه فى نبيه وصاحبيه الكبيرين أبا بكر وعمر - رضى الله عنهما- بأن إذا جاءه نبى أن يأتيه ليعطيه خادماً، وكان عنده -ﷺ- غلامان؛ فقال عليه الصلاة والسلام: لأبى الهيثم: خذ أحدهما؛ فقال له: اختر لى يا رسول الله؛ فقال عليه الصلاة والسلام- المستشار مؤتمن، خذ هذا، فإنى رأيته يصلى، وأحسن إليه، وقد كان، ووصل أبو الهيثم إلى بيته، وقص على زوجته الذى كان؛ فقالت له: ولن يبلغ إحسانك به إلا إذا أعتقته؛ فأعتقه.

وأنا أتصور فى ثقافة السوء أن رجلاً تستشيره وتلمح له برغبة لديك فى اختيار من يصلى. وإيثاره على غيره فإذا به وقد شعر بتلك الرغبة فيك يصرفك عنه، قائلاً لا يشعرنك أنه يصلى، فكم من مصلى لا يصلى إلا بجوارحه لكنه لا دين له، ولا ذمة، ولا أمانة، أعوذ بالله، انظر إلى فلان، يصلى عند قول المؤذن: الله أكبر، وقد أكل مال فلان، وظلم فلاناً، وضرب فلاناً، ثم تعالى لأقول لك: أليس الدين المعاملة؟ فترد قائلاً: بلى، فيقول لك: معاملته أسوأ معاملة. حتى تقول: أعوذ بالله .

نعم، هناك مستشار غير مؤتمن، وما ذلك إلا بسبب ثقافة السوء، بل إن من الناس من إذا استشرته قال لك افعل ما يعجبك، وما تراه يروقك لا تتردد فيه، ومنهم من يقول لك عموميات، لاتمت إلا الأماتة فى الشورى بسبب كأن يقول لك: ما تخاف منه لاتجد أحلى منه، وخذوهم فقراء يغنيهم الله من فضله، ولو جاءوا للمجنون بألف عقل على عقله لقال عقلى أفضل، ونحو ذلك، فما بك فى حلقك ريقاً، وما أراح فى صدرك ضميراً، ومارساك على بر، ثقافة السوء تمنعه من أن يعمل عقله، ويعطيك خبرته، وينفعك

www.ibtesama.com

بشيء هو قادر عليه وإن عاتبه أحد من خلصائه قال له: كبر دماغك، وكم أدت هذه العبارة "كبر دماغك" إلى تخلف كبير عن ركب الدين الذى يدعو إلى ثقافة الحسن والتنوير؛ ومسايرة ركب الحضارة، والدعوة إلى أطيب حياة، ولن تطيب الحياة دون إعمال رأى وفكر ودلالة علي الذى هو خير، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ وقول النبى -ﷺ- "إنما الدين النصيحة" والله - عز وجل - يقول: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

ولن يعزم امرؤ على أمره ويتوكل على الله فينجزه إلا إذا كان على بصيرة منه، ولن تتحقق هذه البصيرة برأى فرد قد يكون بينه وبين الصواب مسافات بعيدة .

وقد شاور النبى -ﷺ- أصحابه، وأخذ برأيهم وهو الغنى عن الناس جميعاً بالوحى، ونور النبوة، وإنما ذلك للتشريع، حتى يسن لنا معشر المسلمين "الشورى" فمن استشار أحداً فقد عرج على عقله، ونهل من فكره، واغترف من فيوضات تجاربه، وما ندم من استشار، ومن الناس من إذا استشرته اكتفى بقوله لك: صل صلاة استخارة وأنا أتصور أن ذلك لم يفدك، وإنما فر منك متمسحاً بالدين وقد جاءته فاطمة بنت قيس - رضى الله عنها- تقول للنبى -ﷺ- إن رجلين خطباها، هما معاوية بن أبى سفيان ورجل اسمه أبو جهم، فما قال لها -ﷺ- صلى يا فاطمة صلاة استخارة، وإنما قال لها: أما معاوية فصعلوك لا مال عنده، وأما أبو جهم فرجل لا يضع العصا عن عاتقه، ثم قال لها -ﷺ- تزوجى أسامة. قالت: فكرهته فلما ذكره النبى -ﷺ- تزوجته،

www.ibtesama.com

فإذا به الخير فهل رأيت أحداً استشرته أن يختار لك شيئاً من شيئين فاختار لك ثالثاً لم يخطر على بالك، وصرفك عن الشيئين اللذين جئته من أجل أن يختار لك أحدهما! إنه لا يفعل ذلك إلا إذا كان متأسياً بالنبى -ﷺ- وسوف يسفر بلا شك هذا التأسى عن فكر جديد، وخير بلا شك جديد؛ لأن ثمرة الاجتهاد طيبة بلا ريب، والله عز وجل يقول فى خاتمة سورة الحج: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ ومن حق الجهاد أن يعمل العاقل عقله، وأن يفيد إخوانه لا سيما الذين استشاروه؛ فالمستشار مؤتمن .

أحلام يسيرة دونها أهوال

٩- ثقافة السوء (تمنى القليل):

من ثقافة السوء أن يتظاهر المرء بالقناعة، وأن يعرب عن رغبته فى القليل دون الكثير، يقول: إذا حصل ولدى على الإعدادية فهذا منتهى الأمل ويقول لك: إذا أكرمنا الله بشقة من حجرة وصالة فياسلام نعمة ورضا .

حتى إن بعضهم إذا ذكرت الجنة ونعيمها قال: أى حاجة، أى حاجة، المهم أن يبعدنا الله عن النار، وما ذلك بفقه فى الدين؛ لقول الله- عز وجل- ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾. وقوله سبحانه: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾.

وقوله -ﷺ-: "إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس".

وفلسفة أى حاجة وأى كلام، وأى إنسان، وأى واحد من ثقافة السوء؛ لأن من هدى هذا الدين التطلع إلى القمم، وسؤال الله

www.ibtesama.com

-عز وجل- من فضله، وفضل الله عظيم، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

وقد دعا سليمان -عليه السلام- الله؛ فقال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ والنبى -ﷺ- يتحدث عن بعض نعم الله. تعالى عليه فيقول: "نصرت بالرعب، وأوتيت جوامع الكلم، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً".

أى أن فضل الله عليه عظيم، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾، فلماذا التدنى فى المطالب، وسؤال القليل، وما أسميه (البسبسة): فى الدعاء، أى يقول الداعى: يا رب، الصحة وبس، أو يقول: الستر وبس، أو يقول: أرى ابنتى فلانة فى بيت زوجها، وبس، لا أطلب شيئاً من الدنيا غير هذا، أو من المعقول أن يكون هذا فكر المسلم الذى يتلو قول الله -عز وجل-: ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾، وقوله تبارك اسمه: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا. يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا. وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا. مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا. وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾.

أيقول الله - عز وجل- واسألوا الله من فضله ونحن نستخف هذا الفضل ونستقله، ونقول: كذا وبس. أو كذا وفقط، هل نظن أن فضل الله -عز وجل- ضيق، أو نريد أن نوفر لغيرنا، فما عند الله قليل، لا يكفى كل العباد، ونحن نعتقد أن الله -عز وجل- لو أعطى كل إنسان مسألته ما نقص ذلك من ملكه شيئاً، فأى شىء يحول دون سؤاله -عز وجل- كل شىء .

إن هناك زهداً صحيحاً، هو الزهد عما فى أيدى الناس، فذلك سبيل إلى حبهم، فالناس يحبون ألا يطمع فيهم أحد، لكن رب

www.ibtesama.com

الناس يحب أن يطمع كل أحد فيما عنده. فهو رب العالمين، وهو ذو الملك العظيم ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾. وهو يحب من دعاه، ولله در القائل:

الله يغضب إن تركت سؤاله وبنى آدم حين يسأل يغضب

ولعل ما نحن فيه من تخلف فى الحياة بسبب تلك الثقافة السيئة حيث إن من مقتضياتها عدم العمل المبنى على عدم التطلع إلى مزيد من رفاهية الحياة، فإن معظم الناس يعيش فى المستوى الأدنى وبوسعه أن يرتقى، وأن يتحول بحياته إلى أطيب حياة من خلال أمرين مهمين .

الأول: العمل الجاد المتواصل مع التوكل على الله –عز وجل.

والثانى: توفير ما يستطيع توفيره من أجل النهوض بمستوى حياته، وحياة أسرته، ومن ثم حياة أمته التى هو لبنة من لبنات صرحها.

لكن هؤلاء يزعمون أنه الرضا، وأنها القناعة، يقولون من رضى بقليله عاش، وهل يظن أولئك أن من رضى بكثيره مات، نعم، من رضى بقليله عاش إذا لم يجد غير هذا القليل، ولم يكن فى وسعه تحصيل الكثير، أما الذى فى وسعه أن يحصل على الكثير ويتركه، راضياً بالقليل فهذا أحمق لأن الإسلام دعوة إلى أطيب حياة، وما أيسر ذلك؛ لأن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ولكن دون ذلك أهوال من ثقافة السوء .

www.ibtesama.com

أحلام يسيرة دونها أهوال

١٠- ثقافة السوء (قل يارب):

يأكل الفاكهة دون أن يغسلها، فإن قال له قائل: ألا تغسلها قال: قل يارب .

وينصب نفسه طبيباً لنفسه، فلا يستشير طبيباً، وإنما يداوى نفسه بأى عقاقير يجدها أمامه، فإن قال له قائل: تضر بنفسك إذاً أجابه: قل يارب.

ومعروف أن نومه تقيل، وهو على موعد فى البكور، فإن قال له صاحبه: أمر عليك فى الصباح! قال: لا تفعل سوف آتيك قبل موعدنا، قل يارب، فيقول: يارب.

ومعروف أنه لن يستطيع رفع شىء ثقيل، فإن قيل له: لا تفعل قال: قل يارب .

فلماذا لم يقل رسول الله -ﷺ- يارب وهو يرد صغار السن من غلمان المسلمين الذين أتوه لكى يجاهدوا معه.

ولماذا لم يقل لسعد بن أبى وقاص-رضي الله عنه- حين مرض: قل يارب، وقال له: اذهب إلى الحارث بن كلدة .

إن ثقافة السوء تمتد إلى عدم الفقه بالدين، يقولون -وقولهم صواب- إن الله على كل شىء قدير .

ونحن نؤمن بأن الله - على كل شىء قدير، ونؤمن فى الوقت نفسه بأنه- عز وجل- قال: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلا بِشِقِّ الأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ فالله تعالى على كل شىء قدير، وقد سن للوجود سننه ومن سننه أن المرء إذا بلغ

www.ibtesama.com

بلداً بعيداً دون أن يركب حماراً أو بغلاً أو خيلاً أو طيارة أو سيارة لم يبلغه إلا إذا شقت نفسه شقين، ما قال الله -عز وجل- قولوا يارب وأنا أجعل الريح تحملكم، وما قال تعالى- قولوا يارب وأنا أرزقكم من فوق سبع سماوات، وإنما قال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾.

وقال لمريم – عليها السلام- وهي في المخاض ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا. وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا. فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾.

إن ثقافة المسن التى هى ثقافة الدين تقتضى أن يفقه المرء الربط بين قوله "يارب" وبين أخذه بالسبب، أى أنه لابد أن يقول يارب وهو آخذ بالسبب؛ لأن السبب وحده لا يكفى لبلوغ الغاية ما لم يكن توفيق من الله – عز وجل- ولله در القائل:

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجنى عليه اجتهاده

وقد قاتل المسلمون فى سبيل الله، خرجوا لمواجهة الطغاة الظالمين، ورموا أعداء الله والدين والمسلمين فانظر ماذا قال الله رب العالمين، قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾.

وقس على هذه الآية الكريمة من سورة الأنفال كل موضع كان السبب فيه ناجحاً، لا تظن أنه السبب الذى حقق النجاح، وإنما هو خالق السبب الذى إن شاء أنفذه، وإن شاء عطله ألم يجر سراقة بفرسه وراء النبى -ﷺ- وصاحبه ليأتى بها إلى قريش وينال الجائزة التى أعدوها من أجل ذلك وهى مائة ناقة، فعطل الله سببه، وساخت الفرس النجيبة فى الأرض، لقد تعطل السبب، كما تعطل من قبل حين أغشى الله الكفرة الواقفين ببابه -ﷺ-

www.ibtesama.com

ليلة الهجرة ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾.

لكن علمنا بأن السبب وحده لا يكفى لنجاح شىء لا يعنى إهماله، أو تركه، أو الاستهانة به، لأننا مأمورون بالأخذ به، مع التوكل على الله - عز وجل- والاعتقاد فى مدده، وحوله، وقوته، وأنه هو الذى يدفع بنا وبالأسباب التى خلقها من أجلنا نحو غاية مشروعة، فيها رضاه، وفيها صلاح أحوالنا، فمن توكل على الله -عز وجل- قال يارب وهو آخذ بالسبب، ومن زعم أن يارب وحدها تحقق النجاح فذلك صحيح إذا انعدم السبب، عندئذ يجعل الله تعالى للتقى مخرجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب، وهو بالغ أمره -عز وجل- أما إذا وجد السبب فلابد من الأخذ به .

www.ibtesama.com

الفصل الثانى

أحلامنا العسيرة يسيرة عند اللّه

لكن دونها أهوال

www.ibtesama.com

العسير عندنا يسير عند الله ولكن

أحاول فى هذا الفصل الأخير من هذا الكتاب أن أرصد بعض الأحلام التى هى بالنسبة إلينا عسيرة، وهى عند الله يسيرة، ولكن دونها أهوال، وهذه الأهوال إما من سوء فقهنا هذا الدين خصوصاً الكتاب الكريم الذى أنزله الله مباركاً لندبر آياته، وإما من عدم ارتكاز دعاتنا على دعامة تجعله دعاء مستجاباً، أى أن هذه الأحلام اليسيرة بالنسبة إلى المولى - عز وجل - لا تتحقق لنا بسبب يرجع إلينا، أو بسبب عدم إجابة دعائنا، هذا ما هديت إليه، وأسأل الله تمامه بتوفيقه؛ فأقول: إن الكتاب الكريم، والسنة المطهرة المصدرين الأساسيين لهذا الدين عقيدة وعملاً وسلوكاً، وفيهما النص القطعى الدلالة على تحقق اليسير من الأحلام الذى يبدو عسيراً عندنا من غير شك، ولأضرب على ذلك تلك النماذج :

١- استحالة العدو حبيباً:

من هذه الأحلام أن يصبح عدوك اللدود حبيباً مقرباً، وسبيل ذلك أن تدرأ سيئته بحسنة، ألا ترى إلى قول الله -عز وجل-: **﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ. وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾**.

وكون العدو اللدود يصبح ولياً حميماً من الأحلام اليسيرة عند الناس بعضهم يقول: هذا من رابع المستحيلات، وبعضهم يقول للطامع فيه: عشم إبليس فى الجنة، وفريق ثالث يقول: عندما ترى حلمة أذنك، وقد يستعيد فريق رابع مثقف قول القدامى عندما يبيض القار، ويشيب الغراب، أى أن الجميع يتفقون على أن تحول العدو إلى الحبيب من المستحيلات .

www.ibtesama.com

ولكن الله – عز وجل- ربنا- يقول بعكس ذلك فقل: صدق الله، ومن أصدق من الله حديثاً؟ ومن صدق الله صدقه الله، وسبيل ذلك أن تقابل السيئة بالحسنة، ولا تلتفت لقول بعض الجهال: سيقال عنك ضعيف، سوف يركبك أكثر، سوف يزعم أنه قد غلبك، وقهرك، وأنك تخاف منه زيادة السوء، ولو لم تكن على يقين من أنه يستطيع أن يفرمك لما لنت له، إلى غير ذلك من العلل الداعية إلى مقابلة السيئة بسيئة أعنف، ومقابلة الفحش بفحش أشد، وأن الناس منهم من لا يردعه إلا هذا السلوك، والعين الحمراء، والزرقاء، وهناك نقطة مهمة أشار إليها النظم الجليل إلى سلاح السالك هذا المسلك، وسلاحه الصبر، أى كن صبوراً وأنت تدفع السيئة بالحسنة، لا تكن عجولاً، تنتظر مودته من أول حسنة، ولاتكن أرعن، تظهر اللين وعيناك معبرتان عن شك وريب؛ لأنك عندئذ تبدو مثل الذى يتصنع ويتكلف، وسوف يقرأ عدوك هذا التكلف، فيستفزك من جديد، حتى يذهب لينك المصطنع، وتحل محله قسوتك البادية فى نظرة عينيك، وشحوب وجهك، وارتعاش أعضائك فهو لا يراك على تمام هيئتك من الرضا، والتسامح، وإنما يراك تقدم رجلاً، وتؤخر أخرى، أى أنك من المترددين، المرتابين وهو فى حال إساءة ما زال مشتعلاً بنيرانها، ولهيب الغضب يحرقه، وماؤك الذى جئت به لا يطفئ كل هذه النيران، إنما يطفئها ماء اليقين بكلمات الله – عز وجل- فأنت تذهب إليه وإن جافاك، وتعفو عنه حين ظلمك، وتصبر على ذلك ولا شك أن نفس عدوك مهيئة لاستقبال ذلك بدليل قول ربك ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ ولولا أن نفسه مهيئة لقبول ذلك منك، وأنه مهئ للتحول من العداوة إلى الولاية الحميمة لما قال ربنا – تعالى – ذلك وبناء عليه فإن الحلم اليسير دونه أهوال من جبلة نفس ترغب فى الانتقام، ومن رفاق سوء، قد يكونون من

www.ibtesama.com

أهلك، وأقرب الناس إليك، فقد تقول لك زوجتك: والله لن أنام إلى جوارك على سرير واحد وإن لم ترنى فيه الأعاجيب حتى أشعر أننى متزوجة من رجل بحق، فإن الناس يقولون أتزعمين أنك امرأة رجل، لتغلى دماءك فى عروقك، فتسحب سكيناً أو مسدساً وتقتل جاراً أساء إليها بكلمة أو شتمها، أو عيرها بأحد من أهلها، عندئذ تتوارث العداوة بعد قتله، وبعد إعدامك أو سجنك المؤبد!

العمل يحقق عسير الأحلام

٢- ولله عز وجل يقول فى آية الملك: ﴿**لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ**﴾ والنبى -ﷺ- يقول: "يعمل ويتصدق" فى جواب من سأله عمن لا يجد صدقة، ويقول -ﷺ- "ما أكل احد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبى الله داود -عليه السلام- كان يأكل من عمل يده".

وقد بلغ كثير من الصحابة مبلغاً عظيماً فى الثراء؛ لأنهم عملوا، وفقهوا أعمالهم، ومهروا فيها، أمثال أبى بكر -رضي الله عنه- وعمر، وعثمان، الذى جاء متأخراً عن الجمعة بسبب السوق، وعمر أمير المؤمنين يخطب، وذكر أنه لم يتمكن من غسل الجمعة، فاكتفى بالوضوء، واستدل الإمام الشافعى -رضي الله عنه- بذلك فى كتابه الرسالة على أن قول النبى -ﷺ-: "غسل الجمعة واجب على كل محتلم" أن واجب معناه السنة، وليس الفرض، فلو كان واجباً لأرجع عمر عثمان من المسجد حتى يغتسل، لكنه سمح له بحضور الباقى من الخطبة والصلاة؛ فدل ذلك على أن الوجوب فى هذا الحديث بمعنى السنة .

فانظر لم يؤخر عثمان -رضي الله عنه- نوم ولا كسل ولا مشاهدة مباراة، ولا شات، ولكن أخره العمل فى السوق- وكان ذا تجارة، ومنهم عبد الرحمن بن عوف -رضي الله عنه- الذى عرض عليه أخوه

www.ibtesama.com

الأنصارى سعد بن الربيع أن يشاطره ماله وأهله؛ فقال له: بارك الله لك فى مالك وفى أهلك، ولكن دلنى على السوق؛ فدله عليها (السوق مؤنثة) فباع واشترى، وكان ربحه عقال بعير، ثم صار ببركة الله -عز وجل- صاحب ملايين، وتجارة واسعة، أفادنا بسر ربحه وملايينه بأنه لم يحتكر سلعة، وإنما كان يرضى بقليل الربح ويبيع كثيراً، فاضرب القليل فى الكثير ينتج لك الكثير جداً والله -عز وجل- يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ فربطَ حسن العمل بالمؤمنين وربط المؤمنين بحسن العمل، ومع الأسف تخلف المسلمون عن هذا الربط، وتركوه لغيرهم؛ ففازوا حيث تخلف المسلمون، وصارت الماركات الدالة على حسن الصنع وإتقان العمل كلها لغير المسلمين من الساعات، والسيارات. وغيرهما من الأجهزة التى باتت ضرورية فى الحياة، فهل سمعت عن ماركة عربية أو إسلامية فى شىء من الصناعات، والمزروعات، حتى بعض الثمار والفواكه لا حظ لنا فى ذيوعها وانتشارها فى بلاد الدنيا، وإنما يقال "تفاح أمريكانى ولبنانى أحياناً" ويقال صناعة يابانية وقد غزة الصين العالم بمنتجاتها، وجدتها، وعمل كل فرد فرد فيها وفى يوم من الأيام، كنت أسير فى شارع فؤاد بوسط القاهرة، وأشرت إلى السائق أن يتوقف إلى جنب صيدلية تعمل على مدى الأربع والعشرين ساعة ليأتينى بقطرة معينة لعينى التى ضيعها أستاذ العيون الكبير بإهماله وكان ذلك حوالى الساعة السادسة صباحاً قبل أن تشرق الشمس نزل السائق، وتركنى فى السيارة التى قدراً كان وقوفها إلى جنب الرصيف الذى وقفت عليه سيدة صينية تبيع أجهزة المحمول، وثلة من التلس حولها، يقلبون فى الأجهزة التى عرضتها على مائدة صغيرة، وتحمل وراء ظهرها حقيبة كبيرة،

www.ibtesama.com

وهى واقفة على قدم وساق، لا تتحدث العربية، وإنما تكتب سعر الجهاز الذى اختاره الزبون على آلة حاسبة بيدها، قلت: سبحان الله، لا أزعم أن امرأة مصرية قامت من نومها فى تلك الساعة إلا مضطرة لإعداد نفسها إن كانت موظفة، أو إعداد طفلها التلميذ قبل أن يصرخ سائق الباص المدرسى بصوته ومنبه باصه المزعج حتى ينزل حمادة، وتوتو، وريتا، وتالية تودعه والنوم فى عينيها، والكسل سار فى عمق نفسها، وفى جميع أعضاء بدنها، تلبى داعى النوم على سريرها بعد أن تقذف بالباب خلف وليدها التى قالت له: باى بتثائب يبث فيه روح اليأس من نشاط خلفه يدفعه إلى نشاط ينتظره .

وتذكرت أمى – رحمها الله- ومثيلاتها من الفلاحات اللائى كن أنشط من هذه المرأة الصينية، وأبكر منها حيث كن يفقن من نومهن قبل الفجر فى همة ونشاط، لتنظيف دار، وحلب جاموسة، وإفطار أسرة، ورعاية أحوال، من أجل ذلك خرجن إلى الدنيا علماءً كباراً، زرعن فيهم روح الجد والهمة، فحققن بعض الأحلام فى ظروف صعبة من نظم فاسدة ، ولوائح ظالمة لولاها لحققوا كل الأحلام .

إقامة الدين تحقق عسير الأحلام

٣- وفى الآية (٦٦) من سورة المائدة يقول الله – تعالى-﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ**﴾.

أى لو أن أهل الكتاب أقاموا التوراة والإنجيل والقرآن لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم، وكذا لو أن المسلمين أقاموا الدين لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم، والأكل من فوقنا ومن تحت

www.ibtesama.com

أرجلنا من الأحلام العسيرة خصوصاً فى زمان الجـوع، والفـتن، والفساد الذى يصلحه إقامة الدين، فإقامة الدين تحقق العسير من الأحلام أى أنها أحلام يسيرة بالنسبة إلى الحق وحاشاه أن يـسند إليه حلم، فإنه عز وجل- لا يعجزه شـىء فـى الأرض ولا فـى السماء أى أن العسير الذى نتصوره من المستحيلات هو عند الله هين ولكنه دونه أهوال من عدم إقامتنا الدين، فلو أقمنا الدين لما كانت عندنا من مشكلة .

ومعنى إقامة الدين التى ألفت فيها أعمالاً كاملـة أن يكـون للدين وجود فى حياتنا، أن يتحول من نظرية إلى تطبيق فما أكثـر الذين يحفظون القرآن الكريم، وما أكثر المفسرين الذين تخصصوا فى علم التفسير وعلوم القرآن، وما أكثر علماء الحـديث الـذين يصح أن نطلق عليهم حفاظاً، درسوا الحديث متناً ورواية وسـنداً وعرفوا الرجال، أى عرفوا الثقات والمجروحين، وهم بحور علـم فى تلك التخصصات الدقيقة، ولكن هل رأينـا الـدين واقعـاً فـى حياتهم، لا شك أن هناك صالحين .

وهناك دون ذلك، وهم الأكثرية، انظر مثلاً إلى المساجد كـم تجد من الناس يوم الجمعة، بل انظر إلى الحجيج الـذين يمـوت بعضهم من شدة الزحام لا سيما عنـد الجمـرات، حيـث يتـدافع الملايين فى لحظة واحدة، وبالمناسبة لو أقمنا الـدين فـى تلـك الشعيرة لما مات أحد، حيث إن الرمى جائز على مدى الساعة، أى بالليل والنهار لضرورة الزحام، وهو ليس من أركان الحج، لكـن التشدد هو الذى يوهم الناس أن الذى لا يرمى عند الزوال لا حـج له، وأنه ضيع السنة، وليس فى ذلك من إقامة الدين شىء .

نظر الناس إلى صحابى جليل هو أبو بكرة الأسلمى حين قطع الصلاة وجرى وراء فرسه الذى قطع الحبل وقالوا: هذا صـاحب

www.ibtesama.com

رسول الله -ﷺ- يقطع صلاته من أجل فرس؛ فتألم حين سمعهم، وقال صحبت رسول الله -ﷺ- وما عنفنى، وكان رفيقاً، وما عنفنى أحد من أصحابه، إننى لو لم أقطع صلاتى لفر فرسى، وما أدركت أصلى إلا بليل، وفى الوقت اتساع أين هذا الفكر الآن من أولئك المتشددين الذين يزعمون أن التشدد هو روح الدين، وأين هذا الفكر من أولئك الذين تدينوا فى أنفسهم بهمهمات وأدعية وصور، وتركوا العلم والعمل، بل السلوك الذى يرتقى بهم إلى رضوان الله -عز وجل- وإلى تحقيق عسير الحلم الذى هو يسير عند الله - عز وجل- فإنه - جل وعلا- لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء، إننا فى حاجة إلى إقامة الدين كما أننا فى حاجة إلى إقامة البيت الذى نحلم به، ونحن نحفظ كيفية رسمه نقول: الباب كذا، والطرقات كذا وكذا، والحجرات كذا وكذا والتهوية كذا، والبحرى أفضل، والسقف كذا، والحديقة من هنا ونظل نحلم دون أن يتحقق الحلم فهل ترانا أقمناه حتى يصبح واقعاً نسكنه، أو نبيعه، أو نهبه لمساكين مغتربين!

إننا بمجرد الحديث أشبه ما نكون بمراهق، يقول سأتزوج من حسناء الشكل، أصيلة النسب، مثقفة، وسوف أسعدها، وتسعدنى، وسوف أنجب ثلاثة أطفال، كلهم سيصبحون أطباء، ويشتركون بمساعدتى لهم فى بناء مستشفى عظيم، ويفعلون كذا وكذا، وسوف أبنى بيتاً على النيل، وأشترى مزرعة فى الصحراء الشاسعة، ويظل يرسم أحلاماً وهو الذى لا يعمل أصلاً، ولا يحاول أن يحصل على فرصة عمل وهكذا، نحن فى إقامة الدين كالمراهقين، يتكلمون ويحلمون ولا يعملون، وحين سأل ربيعة بن كعب -رضي الله عنه- رسول الله -ﷺ- رفقته فى الجنة قال له -ﷺ- أعنى على ذلك بكثرة السجود، أى بطاعتك لله -عز وجل- فليس الدين بالتمنى، وقد قال ربنا - تعالى: ﴿**لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ**﴾ فمن أراد أن يحقق حلمه فليجعل الدين واقعاً فى حياته وليس مجرد كلمات!

www.ibtesama.com

تقوى الله تحقق عسير الأحلام

٤- والله عز وجل - يقول: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا. وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾.

والمخرج قد يكون عزيز المنال فى كثير من الأحوال، لكنه على الله -عز وجل- هين، والرزق من حيث لا يحتسب المرء من وادى المحال كذلك، لكن الله ضامنه لمن يتقيه، والتقوى معناها أن تتخذ لنفسك وقاية من غضب الله، وعذابه، بأن تطيعه، فهو يجدك حيث أمرك، ولا يجدك حيث نهاك، وليس معنى ذلك أنك معصوم من الخطأ، وإنما هذا ديدنك، وتلك عادتك، وقد تقع فى المعاصى، فإذا بك تتذكر وعيد الله -تعالى- عليها، فلتستغفر وتتوب ولا تتمادى فى المعاصى والذنوب، قال الله -عز وجل-: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

وقد تقبل على المعصية وأنت تقى، فتتذكر، فتعزف عنها، قال الله -عز وجل-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾.

ولكى تكون تقياً تحقق الأحلام العسيرة بتقواك فإننى أدعوك إلى تدبر تلك الآيات الواردة فى سياق التقوى، لكى تقول أنا كذلك فأنا والحمد لله تقى، أو تعرف الطريق إلى التقوى فتسلكه، فترضى بذلك ربك، وتتحقق أحلامك، وأول هذه الآيات قول الله- عز وجل- ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.

www.ibtesama.com

فإن كنت لا ترى الإسلام شكلاً وحركات، وإنما تـراه يقينـاً استقر فى قلبك، وصدق ذلك اليقين عملك الذى من أهمـه إيتـاء المال برغم حبك إياه ذوى قرابتك، واليتامى الفقراء، والمـساكين وابن السبيل والسائلين، وفى الرقاب تحررها من قيـد العبوديـة للناس إلى عظيم العزة بالعبودية لرب الناس، أو تعتقهـا مـن ذل الفقر والحاجة والضعف، ألا ترى إلى حديث الـشيخين البخـارى ومسلم – حيث قالت أسماء بنت أبى بكر – رضـى الله عنهمـا- حين أرسل إليها أبوها الصديق من يسوس لها فرس الزبير بـن العوام زوجها، وكانت تسوسه هى، وتحمل طعامه على رأسـها: فكأنما أعتقنى، وكم من رقاب فى حاجة إلى هذا العتق الذى غاب عنا، من يتيم لولا كافله لكان أذل من عبد، ومن أم لـولا ولـدها الذى يشقى من أجل أن يعينها على ذل السؤال والحاجـة لكانـت معرضة لويلات وغير ذلك، فإن كنت تـصون رقابـاً مـن الـذل والحاجة فأنت من المتقـين، وكـذلك أن تكـون مـن المـصلين المحافظين على صلواتهم، الدائمين عليها، الخاشعين فيهـا، وأن تكون من المزكين، الذين يحسبون زكاة أموالهم، وينفقونها فـى مصارفها المعروفة، ويجتهدون فى البحث عن مـستحقيها الـذين قال الله فيهم ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾، وكـذلك أن تكون وفيا إذا عاهدت ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ وقـال جـل وعلا-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾، وأن تكون مما بدا صابراً فى البأساء والضرَاء، فلا تعرف الضجر، ولا تكون كالذين يقولون: إننـا صـابرون وهـم يجزعون، ويخورون، ويضعفون وقـد قـال الله -عـز وجـل-: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾.

فالصابرون بحق هم الذين تراهم وهم مصابون، فتقول لـيس بهم مصيبة، ومن تلك الآيات قول الله- عز وجل-: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ. الَّذِينَ

www.ibtesama.com

يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ. وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فإن كنت ممن ينفق فى السراء والضراء، وممن يكتب غيظه، ويعفو عمن ظلمه، ويحسن فى كل أمور، ويرجع بسرعة إن ظلم نفسه أو ارتكب فاحشة، فيتوب ويستغفر - إن كنت كذلك فأنت تقى، وإن لم تكن فهذا هو السبيل، ومن تلك الآيات قول الله - تعالى -: **﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى. الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى. وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى. إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى. وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾** فإن كنت من الذى يؤتى ماله فيتصدق ويزكى، ولا يبتغى بذلك الإنفاق إلا وجه الله تعالى فأنت تقى، وسوف يجنبك الله النار التى يصلاها الأشقى، وسوف تحقق أحلامك رخاء فى الدنيا ونعيماً مقيماً فى الآخرة .

إن الله يغفر الذنوب جميعاً

٥- والتوبة تجب ما قبلها كما أن الإسلام يجب ما قبله، يقول بعض الناس هل من المعقول أن يغفر الله لى كل هذه الذنوب، يراها ضرباً من المحال، والله عز وجل - واسع رحيم، وسعت رحمته كل شىء يقول عز وجل مخاطباً عباده الذين أسرفوا على أنفسهم فى المعاصى والذنوب: **﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾** ويقول تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾** فأى شىء أوضح من هذا وأدل على رحمة الله الواسعة التى يكتبها لعباده الذين يتوبون إليه، وقد قال: **﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾**.

وقال عز وجل: **﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾** وقد فهم هذه

www.ibtesama.com

الآية من سورة الفرقان جماعة من هواة الدعاة خطأ، حيث زعموا أنه بمجرد التوبة تتبدل السيئات حسنات وهذا لم يقل به عالم، فإن العلماء جميعاً على أنه لكى تتبدل السيئات حسنات لابد من عمل حسنات بعد التوبة، يذهب الله بها تلك السيئات، لقوله تعالى: ﴿وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا﴾ وقوله – سبحانه وتعالى-: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ وذكر الزمخشرى – رحمه الله- بعض الأمثلة على ذلك ومنها أن الذى تاب من السرقة عليه أن يعمل بعد أن يؤدى ما سرقه إلى أصحابه، وأن الذى كان يزنى عليه إذا تاب أن يتزوج وأن الذى كان يهين المصحف عليه أن يكرمه إذا تاب ويدفعه فوق رأسه، ويقبله كثيراً .

وهكذا، تصور هذا الحلم الذى يبدو عسيراً عند كثير من الناس وهو عند الله –عز وجل- هين؛ لأنه الغفور الرحيم، يغفر الذنوب جميعاً، فقط عليك أن تتوب، فتندم على ما فات من إساءة، وتعقد العزم على عدم العودة إليه فى المستقبل وتعمل العمل الصالح الذى يذهب الله به عز وجل سيئاتك وإن كانت التوبة عن أمور مادية فلابد من رفعها إلى أصحابها فإن لم تكن موجودة كانت فى النية والذمة إلى أن يفتح الله عز وجل ويرزق، فإن عاجلت المنية من قصد ذلك دون أن يقضى ما عليه فهو فى ذمة الله –عز وجل- والله واسع وكريم وقد ورد أن صاحب الحق يأتى به الله فى الآخرة، ويريه قصراً فى الجنة يزعم من فرط بماله أنه قد أعد لنبى أو شهيد، فيقول الله – تعالى- له: إنه معد لمن عفا عن أخيه المسلم، فيقول: ربى قد عفوت، فيأمره الله- تعالى – أن يذهب إلى قصره، وأن يأخذ أخاه معه إلى قصر له آخر.

ولكن ما السبيل إلى التوبة النصوح، والناس معظمهم يعرف التوبة كلمات، والتوبة التى هى كلمات كما قال العلماء توبة الكذابين. كالاستغفار الذى هو باللسان، أى أن يقول تبت إلى الله، ورجعت إلى الله، وندمت على ما فعلت، وعزمت على أننى لاأعود

www.ibtesama.com

إلى المعاصى أبداً، وذلك فى كل المناسبات لا سيما مناسبة حضور عقود القرآن فى المساجد، والقاعات حيث يبدأ المأذون بهذه الكلمات، ويطلب من الناس أن يعيدوها وراءه .

والله – عز وجل – يفرح بتوبة عباده الصادقين فرحاً أشد من فرحة رجل افتقد دابته وعليها زاده وماؤه، وتعب فى العثور عليها، فلما يئس نام تحت شجرة فى الصحراء الشاسعة انتظاراً للحدث وفجأة فتح عينيه فإذا بها إلى جانبه، جاءته وعليها زاده وماؤه، فقال من شدة فرحته: اللهم لك الحمد، أنت عبدى وأنا ربك وهذا الحديث الشريف يبين لنا مدى تحقق هذا الحلم الذى يبدو عسيراً عند الناس، وهو عند الله – عز وجل- يسير يسير، فانظر إلى هذا اليسير كيف يتحقق بالتوبة، تلك التوبة النصوح التى تعنى فيما تعنى ألا ينوى الرجوع إلى الذنوب أبداً، وكثير من الناس يسألنى هذا السؤال، وماذا لو رجع المرء إلى الذنب مرة أخرى، وثالثة ورابعة، وقد أجاب عن هذا الغزالى رحمه الله بأنه يجوز، ولابد من توبة فى كل مرة، فلما سئل عن ذلك قال: لو قفلت باب التوبة فى وجهه فمات، مات على معصية، فإن مات، وقد تاب فقد مات على توبة فكان ذلك خيراً له، وأقول: قد يعود رغماً عنه؛ لأنه ضعيف ونفسه أمارة بالسوء، وثالث ذلك الشيطان، ثلاثة أشياء تجعل الإنسان يقترف المعاصى، لكن المهم أنه لا يصر عليها قال تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وهناك من يسأل: هل لقبول الله –عز وجل- توبة العبد من علامات، وقد أجيب عن هذا السؤال من قديم أيضاً بأن علامة ذلك أن يرى الإنسان نفسه منتقلاً من حسنة إلى حسنة زادنا الله حرصاً على عمل الصالحات والحسنات وباعد بيننا وبين السيئات حتى ينصلح حالنا فى الدنيا والآخرة .

www.ibtesama.com

الاستغفار يحقق عسير الأحلام

٦- والله عز وجل - يقول: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا. يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا. وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾.

تصور نزول المطر، الذى يبشر بإنبات الأرض، والأموال والبنين، والجنات والأنهار، هل ترى ذلك من قبيل الحلم اليسير، لاشك أنه صورة من صور الخيال أحياناً تعترى المرء، فيفكر، ويقول: لو كان لى بيت صغير فى منطقة شبه عشوائية، ولى دكان أو محل، ومعى سيارة مستعملة أو موتوسيكل، ثم يخرج زفرات الضعف من أعماقه وهى قوية ويقول من عمق قلبه: آه.. أحلام، فما عسى أن يقول فى رده على إنسان يقول له: ما رأيك فى أن تمطر أرضك وتخضر صحاريك، وتكون لك أموال بلا عد، ويكون لك بنون، وجنات، وأنهار، ألا تراه قد يجيبه بقوله: هل شربت شيئاً؟ أو بقوله: هل بك جنون، أو بقوله: ياعمى، لا تسخر منى، أرجوك، إننى رجل على قد حالى فقير صحيح، لكننى لست طماعاً، ولا ناقص عقل، حتى تقول لى مثل هذا الكلام، أو يقول له: هل ترى أننى أعمل فى مجال المخدرات مثلاً، أو أننى سوف أسرق سرقة عظيمة، والحق أن القائل الله - عز وجل، وأن المخاطب ليس مثل بنى إسرائيل الذين قالوا لكليم الله موسى -عليه السلام- عندما قال لهم: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا: أتتخذنا هزوا، وفى قراءة: أيتخذنا هزوا والله أصدق الصادقين، وخير الرازقين، وقد قال، فمن أصدق من الله قيلاً؟ ولكن الله عز وجل- جعل ذلك الذى يعد ضرباً من الخيال معلقاً على الاستغفار، وقد يظن كثير من الناس أن معناه أن تقول: أستغفر الله العظيم كل يوم مائة مرة، أو ألف مرة، وبهذا يتحقق الوعد الكريم، وما ذلك بصواب؛ فإن الاستغفار باللسان، كالتوبة باللسان، استغفار كذابين، وتوبة كذابين وذلك لأن معنى: استغفر: طلب المغفرة، وطلب المغفرة كطلب أى شىء، لا يكون باللسان، وإنما يكون

www.ibtesama.com

بالسعى والعمل، نالت مريم -عليها السلام- طعامها وهى فى حال ضعف ونفاس بهز النخلة، ﴿**وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا. فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا**﴾ ولم تنله باللسان وعلم الله -تعالى- عبده داود صنعة لبوس، وألان له الحديد وهو مضرب المثل فى الأكل من عمل اليد "وإن نبى الله داود -عليه السلام- كان يأكل من عمل يده" ورعى خاتم المرسلين سيدنا محمد -ﷺ- الغنم، وأكل من عمل يده وقال عليه الصلاة والسلام- وقد سئل: هل رعيت الغنم: ما بعث الله نبياً إلا رعاها .

ولا ينال طالب العلم العلم بالسان، وإنما يناله بقوة الاستذكار، والتحصيل، والصبر، والتردد الدائم على دور العلم. أو على كبار الشيوخ، وهكذا، قال الله- عز وجل: ﴿**يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا**﴾ ولله در شوقى حيث قال:

وما نيل المطالب بالتمنى ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

والمغفرة أغلى مطلب عند العاقل، الذى يؤمن بأن عذاب الله شديد، وما له من واق، وهى لا تنال كذلك باللسان، وإنما تنال بالسعى والعمل، فمن أقام الصلاة فقد استغفر الله، ومن أتى الزكاة فقد استغفر الله، ومن حج من مال حلال أو اعتمر فقد استغفر الله، ومن صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه، ما لم يكن حظه من صيامه الجوع والعطش، أى إذا لم يلتزم بآداب الصوم كان حظه من صيامه الجوع والعطش، قال -ﷺ- "من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه" وفى النوافل عشرات المواضع التى تحقق الاستغفار، الذى به تتحقق الأحلام اليسيرة، والتى هى عند الله -عز وجل- يسيرة جدا، ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾ ومن ذلك إماطة الأذى عن الطريق، ومعاونة المحتاج، ولو بجرعة ماء، وطلاقة الوجه عند لقاء الناس، وعيادة المريض، وتشميت العاطس، ومحاسبة النفس، والتجاوز عن

www.ibtesama.com

المعسر، ففى الحديث يقول النبى -ﷺ- "حوسب رجل ممن كان قبلكم، ولم يكن له من الخير شىء إلا أنه كان يعامل الناس، وكان يقول لصبيانه: تجاوزوا عن المعسر: فقال الله لملائكته: نحن أولى بذلك منه، تجاوزوا عنه" فإن أردت الجنات والأنهار والأموال، والبنين فاستغفر الله - عز وجل- على معنى الاستغفار الصحيح بأن تتخذ إلى ربك سبيلاً، قال الله - عزوجل-: ﴿**فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً**﴾ ولا تفهم معنى الاستغفار على أنه عدد على المسابح من الكلمات، والقلب قاس، والخطا مكبلة عن المسير فى سبيل الاستغفار!

فعند الله مغانم كثيرة

٧- أمر الله عز وجل عباده المسلمين أن يتبينوا إذا ضربوا فى الأرض، أولا يقتلوا أحداً ألقى إليهم السلام يقولون له لست مؤمناً ابتغاء عرض الحياة الدنيا، ثم قال: فعند الله مغانم كثيرة، تأمل هذه الآية (٩٤) من سورة النساء ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا**﴾.

يتصور بعد الناس أنه إن لم يجمع من هنا وهناك فسوف يضيع، مثل هذا الذى يقول: لو اتبعنا الحلال وعملنا بما يجب أن يكون لمتنا جوعاً، ومثل هذه الآية يرد على هؤلاء الزاعمين بأن الحلال لا يغنى، وأنه سبيل إلى الفقر والحاجة؛ فلابد من الميل هنا وهناك لكى تمشى الأمور، وهذا منطق عجيب، وفلسفة شيطان لأن رب العالمين- سبحانه وتعالى- يقول: ﴿**تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ**﴾ أى يا من تبتغى عرض الحياة الدنيا عن طريق القتل الذى يبتغى من ورائه الغنائم والسلب، ويا من تبتغى عرض الحياة الدنيا عن طريق الغش والتدليس، اعلموا

www.ibtesama.com

جميعاً أن عند الله – تعالى- مغانم كثيرة، ومغاتم الله الكثيرة لاتنال إلا بطاعته، والبعد عما حرم ونهى، ولا يفقه هذا إلا من كان قلبه مطمئناً بذكر الله، أى بذكر وعده وقد وعد، ووعده الحق، والمشكلة عند الإنسان وحاشا لله أن تكون المشكلة عند الرحيم الرحمن، الذى لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء، إنما المشكلة عند الإنسان الذى توسوس إليه نفسه الأمارة بالسوء، وكذا الشيطان وشيطان الإنس أشد خطراً على الإنسان من شيطان الجن؛ لأن شيطان الجن خناس، أى متراجع منصرف إذا قال العبد "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم" أما شيطان الإنس فقد تقول: أعوذ بالله؛ فيكملها لك، ثم يظل جاثياً على صدرك لايتحرك، ويأمرك بالسوء والفحشاء، ويزين لك سوء عملك، حتى تراه حسناً، وهو الذى يقول لك: إن الحلال لا يكفى- ولابد من شىء من الحرام، حتى يمشى الحال، وبئست هذه الحال التى لاتمشى إلا بالحرام، وفى الحلال غنى وكفاية لمن وفقه الله -تعالى- ومن دعاء المسلمين: اللهم أغننا بحلالك عن حرامك، وبطاعتك عن معصيتك ولن يغنى المرء بالحلال عن الحرام إلا إذا وجد المرء لذة الحلال، فللحلال لذة لا يشعر بحلاوتها إلا من أوتى التقوى والإيمان، وكذا للحرام لذة تطيب عند عشاقه الذين لا يجدون للحلال طعماً، والعياذ بالله، فقد طاب لهم لطول عهدهم به، وهو لا يغنى، أو كما قلت فى عمل عملته تحت هذا العنوان (الماء الذى لا يروى) إن الحرام عند أهل الحلال بمثابة الماء الذى لايروى، لكنه عند أهل الحرام الرى بعينه، وشتان ما بين ماء يروى وماء لا يروى عند التحقيق، وعند النظر بموضوعية .

وحين يقول الله -عز وجل-: ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ يتصور العاقل أن كثرة الغنائم التى عند الله هى على قدره عز وجل، لاعلى قدر الناس. فليس يحدها حد، أو يعدها حد وإنما هى بلا حدود، ولا حصر، وقد قال عز وجل: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاتُحْصُوهَا﴾.

www.ibtesama.com

فهذا من قبيل الأحلام العظيمة التى هى عند الله -عز وجل- يسيرة، ولكن دونها أهوال عند الذين يصعب عليهم أن يتبينوا وأن يتحروا الحلال، ألا ترى إلى قوله - عز وجل-: ﴿**واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين**﴾.

فالصلاة كبيرة عند تارك الصلاة، والصبر عزيز المنال عند الذى لم يتعود الصبر، ولم يؤمن به، ولم يرقب عاقبته، ويتطلع إليها، وكذا التحرى للحلال صعب، ودونه أهوال عند الذى يريد أن يصطاد أى شىء، ويبلغ أى شىء، أما عند المتقين فأمر سهل؛ لأنهم وطنوا أنفسهم على الحلال، فإذا دخل فى بطونهم شىء من الحرام استفرغوه، كما فعل الصحابيان الكبيران الجليلان أبو بكر وعمر - رضى الله عنهما- حين دخل جوفهما لبن من إبل الصدقة استفرغاه، وإذا كنا لا نطمع فى مثل هذا الورع الكبير فإننا على الأقل ننشد ما دونه من اجتناب الكبائر التى تحول بيننا وبين تحقيق أمانينا من الأحلام العسيرة التى هى عند الله يسيرة!

٨- فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله

ومما يحقق الأحلام العسيرة التى هى عند الله -عز وجل- يسيرة جداً اعتزال الباطل والضلال، على عكس ما عليه كثير من الناس الذين يزعمون أهم إذا اعتزلوا الباطل والضلال ماتوا جوعاً وضاعوا، مفارقة عنيفة بين المنطقين، والدعوتين، فمع أيتهما تكون؟ ومع من من أصحابهما تتجه؟

يقول الله - عز وجل- ﴿**فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا. ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا**﴾.

يقول الزمخشرى فى الكشاف ٣/١٦: "ما خسر على الله أحد ترك الكفار الفسقة لوجهه: فعوضه أولاداً مؤمنين أنبياء (ومن رحمتنا): هى النبوة عند الحسن، وعن الكلبى: المال والولد، وتكون عامة فى كل خير دينى، ودنيوى أوتوه).

www.ibtesama.com

هذا الكلام الذى نقلته عن الزمخشرى. وغيره، يجب أن تدرسه الأجيال منذ نعومة أظفارهم، ويجب أن يشيع فى الخطاب الدينى، الذى صار قضية مهمة، من حيث أهدافه وأسراره ومقاصده، وأسلوبه، وكل ذلك مؤسف جداً إن الخطاب الدينى المغيب ينبغى أن يعود، وينبغى أن يشيع فى الناس حتى تكون حياتهم أطيب حياة؛ لأن الحياة لن تكون أطيب حياة إلا بهذا الخطاب الدينى، ومنه قول الله – عز وجل – ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاً جَعَلْنَا نَبِيًا. وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا﴾.

لقد جاء الولد، وجاء المال لما اعتزلهم إبراهيم-عليه السلام- الكفرة الفسقة لوجه الله – تعالى – كما قال الزمخشرى .

ولا شك أن اعتزال الحرام معناه زيادة الحلال. فهل تفكر فى ذلك الذين يدعون إلى التمسك بالحرام؛ لأنه لا سبيل سواه، ولو تركه الإنسان ضاع، ومات جوعاً أو كاد! إن اعتزال الحرام يحقق عسير الأحلام، فضلاً عن يسيرها، ولكن دونه أهوال من الوهم، نعم إنه الوهم لا الحقيقة الذى يسيطر على عقول الناس، ومن ثم على قلوبهم، فيزعمون أن ترك الحرام فيه ضياع لهم، وأنهم لايعرفون غيره، كساقى الخمر مثلاً الذى يقول وقد تبين له حكمها مؤخراً: إنها مهنتى الوحيدة ولا أعرف غيرها، وكالذى فتح صالة للقمار، يقول: لقد نشأت عليها وورثتها عن والدى، وهكذا، أمثلة كثيرة، يدخل فيها تاجر المخدرات، وتدخل فيها البغى، التى تدعى أنها لولا الفاحشة ما استطاعت أن تربى أخواتها اللاتى تركهن أبوها قطعاً حمراء، ولا عائل لهن، صحيح لهن أعمام، وأخوال ولكن لا ينفع عم فى هذا الزمان ولا خال، كل فى حاله لقد تربين أحسن تربية، ونشأن أرق تنشئة، وتعلمن فى أرقى المدارس، والجامعات، وهى شهيدة الكفاح، والنضال، والجهاد، إنها الشمعة التى احترقت من أجل أن تضئ لغيرها الطريق، ولو أن رجلاً أو

www.ibtesama.com

امرأة قالا لها: كنت تبيعين ليموناً عليهن تسخر، وتفرقع اللبانة، وتنظر إلى أحد الموافقين لها، المؤمنين بفكرتها وتضحك بصوت عال، كأنه فرقعة نفس خاوية، نبت صداها فى واد سحيق من النفوس الخربة التى يسعدها مثل هذا الصوت، وكثير من الناس يطربه صوت الغراب، ولا يطربه صوت البلابل؛ لأنه اعتاد سماعها؛ فأدمنها، وكذلك الذى اعتاد الحرام، واتخذه سبيلاً دون الحلال، وحين ترسل هذا الصوت البغيض تقول: اسمع والنبى ماذا يقول... ليمون، والله فكرة، وتسخر كثيراً، ثم ترسل حكمتها الفاسدة قائلة: ومن الليمون هل كن يتعلمن ويسكن فى أوسع البيوت، ويدخلن أرقى الجامعات الخاصة وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿**قُل لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ نعم، نظرت هذه المرأة كما نظر غيرها إلى الكثير الخبيث، وإلى القليل الطيب، فقارنوا بين الكثير والقليل بغض النظر عن صفة كل، أى بغض النظر عن طيب القليل الذى يجعله كثيراً فى نظر أهل الحلال، وبغض النظر عن خبث الكثير الذى يجعله تافهاً منبوذاً عند أهل الحلال أيضاً.

وفى هذا السياق يطيب لى أن أقول: إن الإسلام ليس ضد الكثرة، بدليل قوله – تعالى-: ﴿**فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ**﴾ وقوله – سبحانه-: ﴿**وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا**﴾ وقد يكون الليمون وغيره بالفعل قليلاً، لكنه مبارك فيه، أى يكفى. ويتفوق من يتعلم فى ظلاله، بخلاف الكثير من الغباء وحكمة الإسلام تقول: قليل يكفيك خير من كثير يطغيك".

٩- وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل

والتوكل على الله – عز وجل- حق توكله سبيل تحقيق الأحلام العسيرة، والتى هى عند الله – عز وجل- يسيرة جداً، ألست ترى ما أصاب المسلمين من القرح يوم أحد، فلما جاء اليوم التالى، وهو يوم الأحد السادس عشر من شوال من السنة الثالثة

www.ibtesama.com

للهجرة نادى رسول الله -ﷺ- الناس للخروج وراء القوم، ليريهم أن بهم قوة، فخرج الناس رغم جراحاتهم؛ فقال لهم أحد الناس: إن الناس (الكفار) جمعوا لكم ما لا قبل لكم به فاحذروهم؛ فلم يفت ذلك فى عضدهم، وإنما زادهم إيماناً، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل، وقيض الله -تعالى- لرسوله -ﷺ- وللمسلمين من فت فى عضد المشركين الذين نووا أن يرجعوا إلى المدينة للقضاء عليهم (أى المسلمين) تماماً بعد هذا القرح الذى أصابهم بالأمس، وهو معبد الخزاعى، وكانت خزاعة عيبة رسول الله -ﷺ- مسلمهم وكافرهم، وقد عزى معبد وهو يومئذ على شركه، رسول الله -ﷺ- فيما حدث لأصحابه، بالأمس، وقال له: ودددنا أن الله عافاك فى أصحابك، واستأذنه فى أن يلحق بالمشركين. ويقول شيئاً، فأذن له، ولحق بهم، ولقى أبا سفيان وقال له: إن محمداً -ﷺ- قد جمع لهم ما لا قبل لهم به من الجنود والأسود، حتى إنه قال فى ذلك شعراً، أوله:

كادت تهد من الأصوات راحلتى إذا سالت الأرض بالجرد الأماثيل

وبناء على ذلك رجع أبو سفيان ومن معه إلى مكة، وجاء المسلمون فلم يلقوا كيداً، قال الله - تعالى-: **﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ. فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾**.

انظر إلى من خرج جريحاً وهو متوكل على الله، لم يستجب لداعى النوم والخلود إلى الكسل، ولم يقل إنى معذور، فأنا جريح، ولا قبل لها بهؤلاء الجنود، وإنما خرج وهو قوى بدينه، وثقته بربه، وتوكله عليه، قالوا حسبنا الله، أى كافينا عز وجل، فكفاهم، وتحقق الحلم فانقلبوا بنعمة من الله وفضل، لم يمسسهم سوء، واتبعوا رضوان الله.

www.ibtesama.com

وقولهم: حسبنا الله قد اختلف عندنا، فزعمناه من الدعاء وهو ليس دعاء، يقول لك: حسبى الله ونعم الوكيل منك، ولا أصل لهذا التعبير، ولا معنى للدعاء فيه، إنما هو جملة خبرية معناه: أن الله كافينا مكر الماكرين، وسوء الظالمين، وظلم المفسدين وقد كفاهم فى الوقت الذى ظللنا فيه نقول العبارة نفسها ولكن على سبيل الدعاء، دعاء بعضنا على بعض، بمناسبة وغير مناسبة، وبحق وبدون وجه حق، وما تحركنا ونحن أصحاء فضلاً عن كوننا مرضى أو مجروحين.

وانظر إلى قوله - تعالى -: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

ولطالما أخافنا الشيطان، ووسوس إلينا بأننا لا طاقة لنا بكذا ولا كذا، حتى فى أيسر الأمور، ولذلك تخلفنا عن كثير من الفضائل والأعمال، وسبقنا غيرنا إليها وهم غير مسلمين؛ لأن سنة الله - تعالى - فى الكون لا تتخلف، وهى أن من جد وجد ومن زرع حصد، مسلماً كان أو غير مسلم، ولذا حين وجد النبى -ﷺ- بستاناً، وعليه عجوز، سألها -ﷺ- من غرس هذا البستان؟ مسلم أم غير مسلم فقالت: مسلم يا رسول الله، فسر -ﷺ- سروراً عظيماً: لأنه علم أن الذى غرس البستان مسلم، ولذلك أقول: إن من أراد أن يبعث السرور إلى رسول الله -ﷺ- فليغرس بستاناً، يأكل منه إنسان أو حيوان، أو طير، وله به صدقة كما جاء فى هذا الحديث الذى رواه البخارى فى صحيحه.

وقد دخل عدى بن حاتم على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- وقال له: ألم تعرفنى؟ فقال عمر: كيف! وأول صدقة بيضت وجه رسول الله -ﷺ- صدقه طيئ التى جئت بها.

فانظر إلى ما بيض وجه رسول الله -ﷺ- وإلى ما بعث فى وجهه الكريم هذا السرور العظيم، وقس عليهما كل عمل، قال الله

www.ibtesama.com

فيه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلا إِلا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾، ورب إنسان تراه على هيئة ضعيفة أو ذا شهادة علمية متوسطة وقد حصل الكثير من المنافع والخيرات. أو بلغة هذا الكتاب حقق من الأحلام ما لم يحققه ذو الهيئة العظيمة والشهادة العليا، ولم يحصل عشر ما حصل الأول، والسبب فى ذلك أن الأول اجتهد، وسافر، وغامر على بصيرة، وتوكل على الله حق توكله فيما كان الثانى ينام ملء جفونه، ويعمل قليلاً، ويكسل طويلاً ولا مانع أن يكون من الذين يقولون: حسبى الله. ونعم الوكيل على الوجه غير المعهود، فلا جرم أنه هو الذى ظلم نفسه وتخلف وإن كان على لسانه: هى الدنيا تعطى الحلق من لا أذن له، وليس فى ذلك من الصواب شىء.

١٠- وكذلك ننجى المؤمنين

حين نجى الله – عز وجل- يونس -عليه السلام- من الغم وهو فى بطن الحوت، وفى عمق الظلمات قال عز وجل: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾.

أبدأ بهذا حتى أرد على الذين يقولون فى كل موضع من مواضع العفة، والنبل، والكرامة، والفوز فى حياة الأنبياء: ياسيدى، إنهم أنبياء، وأين نحن من الأنبياء! أقول لهم: تدبروا قول الله- تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى إذا كنت مؤمنا. وكنت فى غاية الضيق، وأزمة الأزمات نجاك الله منها، كما نجى عباده المؤمنين من الأنبياء المكرمين المعصومين، ولا شك أن نجاتك من الكرب العظيم، والظلمات التى بعضها فوق بعض من الأحلام العسيرة التى هى عند الله – تعالى- يسيرة جداً ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ولكن السبيل إلى ذلك هو الأهوال، أهوال نفس لا تشتهى أن تقول إنها ظلمت وأساءت، وقد

www.ibtesama.com

قال يونس -عليه السلام- ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾ واتهام الداعى نفسه بالظلم من ركائز الدعاء، أى مما يستند عليه الدعاء كى يصعد إلى السماء، ويجيبه الله -عز وجل- وكثير من دعاتنا لا يرتكز على شيء مما يرتكز عليه الدعاء، ومن ذلك أن يتهم الداعى نفسه بالظلم، على سبيل الحقيقة لا المجاز وقد قال يونس -عليه السلام- ﴿إني كنت من الظالمين﴾ مع التسبيح، أى نزه الله -تعالى- عن كل نقص لا يليق بذاته المقدسة.

واتهم نفسه هو بالظلم، وهذا معنى التسبيح الحقيقى، أنك تنسب الكمال إلى الله - عز وجل- وتنسب النقص إلى نفسك وقد قال الله - تعالى- فيه -عليه السلام- فى آيات الصافات: ﴿فلولا أنه كان من المسبحين. للبث في بطنه إلى يوم يبعثون﴾.

أى أن التسبيح بحق هو الذى نجاه الله تعالى به، وقد قال كليم الله موسى -عليه السلام- ﴿رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم﴾ .

ومن قبل قال آدم وحواء: ﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾.

فالنبيون يقولون: ربنا ظلمنا أنفسنا، وغيرهم إلا من رحم الله يأبى أن يقول ذلك؛ بل العجيب أننى سمعت أمة من الناس يقولون: يارب، ماذا فعلت حتى تبتلينى بكذا وكذا، وأنا عمرى ما عصيتك، إننى أحبك يارب، وأصلى لك، وأزكى وأتصدق، وأحج وأعتمر، وهكذا، وهذا منطق عجيب لأن الإنسان غير معصوم، ولاشك أنه ظالم نفسه من ناحيتين .

الأولى: أنه مقترف ذنوباً بلا شك؛ لأنه غير معصوم فكل بنى آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون.

والثانية: أنه ظالم نفسه بسوء سلوكه وتعامله مع الأسباب التى تؤدى به إلى كوارث يظنها قدراً مقدوراً وهى من عند نفسه؛

www.ibtesama.com

لقوله – تعالى–﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ ولو أن إنساناً كتب ما يحدث له من المصائب والكوارث، لما وسعته المجلدات الواسعة، ومن ذلك سوء اختياره زوجه، حيث اختاره على أساس من الهوى والشكل، لا على أساس من الدين، فكانت النتيجة شقاقاً وعدم وفاق، وسوء عشرة، وتكدير صفو، ولم يكن التعقيب "رب إنى ظلمت نفسى" وإنما كان التعقيب: "قسمة ونصيب، وهذا حظى، وذاك ابتلاء الله لى" والزواج اختيار، وليس قسمة ونصيباً كما يدعى الناس ومن ذلك أن يقبل المرء على مشروع لا خبرة له به، ولا دراسة جدوى، وتكون النتيجة خسارة، وضياع مال، ويكون التعقيب: لا حظ لنا، لا قسمة لنا، لو كان لنا فيه نصيب لأكلنا منه الشهد، ولكن الله لم يرد، ومن ذلك أن يلعن الرجل أبا الرجل، فيلعن الرجل أباه، ويلعن أمه فيلعن أمه، وآباءه وأجداده، ثم يبكى آخر الآمر، وقد مسحت بكرامته الأرض، ويقول: يارب ماذا فعلت، وماذا أجرمت، ولم يقل ظلمت نفسى، وأنا السبب، ومن ذلك أن نسلم سيارتنا أحد أبنائنا ونحن نعلم أنه لا يتقن قيادة السيارات، فإذا به يضيعها وهذا أهون إذا سلم هو أو يضيع يضيع معها وهذا خطب جلل، ويكون التعقيب: قضاء وقدر وأعطنى عمراً، وارم بى فى البحر، وهذا أجله، ولا أحد يموت ناقص عمر، إلى آخره، والحق أننا يجب أن نقول: ربنا ظلمنا أنفسنا، حتى ينجينا الله من كل كرب، ويخلف علينا .

١١- وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه

الإنفاق سبيل إلى تحقق عسير الأحلام التى هى عند الله تعالى يسيرة ورد فى الصحيح أن رجلاً كان يمشى فى صحراء، فرأى سحابة فى السماء، وسمع صوتاً يناديها: ارجعى، واسقى ضيعة فلان فرجعت، وأمطرت، ونزل الماء، ومضى فى طريق

www.ibtesama.com

تبعه ذلك الرجل حتى وجد رجلاً على ضيعة يحول إليها ذلك الماء، فسأله عن اسمه، وعلم أنه ذات الاسم الذى سمعه فى الأفق، فأخبره الرجل بأنه ينفق ثلث ثمرها على عياله، وينفق ثلثها الآخر على المساكين، ويرد فيها الثلث الأخير أى ينفقه عليها، وقد روى الإمام عبد الله بن أبى جمرة أن رجلاً كان يؤذى الناس، فشكوه إلى نبى فيهم، فسأل الله – تعالى- أن يرحمهم من أذاه، وأنبأ الله تعالى نبيه أن هلاك ذلك الرجل يوم الأربعاء، فبشر النبى الناس، ولما جاء يوم الأربعاء وجدوه عائداً وكان صاحب خز، لم يمسسه سوء، فتعجب النبى والناس، فسأل الله تعالى؛ فقال له، سله ماذا فعل، فسأله فقال: لم أفعل شيئاً، وإنما أعطيت مسكيناً رغيفين فقال الله -تعالى-وبهما أنجيته، ومن ثم قال عليه الصلاة والسلام: "مصانع المعروف تقى مصارع السوء" فمن أراد أن يحقق عسير الأحلام التى هى عند الله يسيرة جداً فليتصدق، وفى الصحيح الذى رواه البخارى وغيره.

يقول -ﷺ-: "داووا مرضاكم بالصدقة" وفيه "اتقوا النار ولو بشق تمرة" تصور كيف أن الصدقة سبيل إلى مداواة مريض قد يعجز الأطباء المهرة عند معالجته، ولابد من الأخذ بالأسباب، والتداوى متى وجدت تلك الأسباب وهى لا تغنى عن الصدقة، والدعاء، والتضرع إلى الله -عز وجل- ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾.

وتصور أعظم حلم فى رأس العاقل وقلبه وهو النجاة من النار كيف يتحقق بالصدقة أيضاً، وقد قال الله سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾.

قال الله -عز وجل- ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾. ومن سبل هذا الفوز العظيم أن يتصدق .

www.ibtesama.com

وقد روى مالك فى الموطأ أن النبى -ﷺ- قال: إن المتصدق فى ظل صدقته يوم القيامة حتى يحكم الله بين العباد.

فالصدقة أفضل العبادات، وفى البخارى وغيره يقول -ﷺ- ما من يوم يصبح علي العباد إلا وملكان يخرجان، يقول أحدهما: اللهم أعطى منفقاً خلفاً ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً.

والله عز وجل يقول: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ وخلف الله - عز وجل- عظيم- ألا ترى إلى قوله عز من قائل: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

والصدقة من ركائز الدعاء بلا شك، وقد ورد أن النبى-ﷺ- قال: اللهم صل على آل أبى أوفى، وكان آل أبى أوفى قد جاءه بالصدقة، وذلك تصديقاً وتحقيقاً لقول الله تعالى ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾.

أقول: ومن ثم كان على المسلم أن يدعو الله، ويسأله من فضله إثر تصدقة، وقد ذكر ابن عبد البر - عليه رحمة الله- أنه يسن للمتصدق أن يسأل المتصدق عليه أن يدعو له كما يسن له أن يسأل المريض أن يدعو له لأن الله - تعالى- عنده والفلاح من القضايا الكبرى بلا شك، وهو يتحقق لمن وقاه الله -عز وجل- شح نفسه، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

وقد كان النبى -ﷺ- أجود الناس وأكرم الناس وكان أكرم ما يكون فى رمضان، كان أسرع بالخير من الريح المرسلة.

فمن ذا الذى يتأسى به، فلا يكون كريماً فى حالة، وإنما يكون كريماً فى حياة، حتى يحقق عزيز الأحلام فضلاً عن يسيرها فإن الله تعالى كريم يحب كل كريم .

www.ibtesama.com

١٢- رب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره

أن تقسم على أحد، فيبر قسمك بأن يأكل؛ فيأكل، أو بأن يجلس فيجلس، أو بأن يسكت فيسكت، وهكذا شيء بلا شك يسرك وقد يكون ذلك حلماً صعب المنال بالنسبة إلى غيرك خصوصاً فى زمان كزماننا، زمن العقوق، ولعلك تذكر الحديث الذى ورد فيه أن خير ما يؤت المرء بعد تقوى الله- عز وجل- زوجة صالحة، إذا نظر إليها سرته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا أقسم عليها أبرته.

فما بالك بمن إذا أقسم على الله- عز وجل- أبره الله! وأنت كما مثلت لك تقسم على أحد من الناس بأن يفعل شيئاً يسيراً بوسعه أن يفعله، لكنه من غير شك عاجز عن فعل ما لا يستطيع. ومن ثم فإن أقسمت عليه لم يبر قسمك؛ لأنه عاجز عن الوفاء بما أقسمت عليه، والله- عز وجل- لا يعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء، فاسأل الله من فضله العظيم ما تشاء، وأنت موقن بالإجابة؛ فقد قال سليمان-عليه السلام-: "رب اغفر لى وهب لى ملكاً لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب" وقد استجاب الله دعاءه ووهب له ملكاً ما وهبه أحداً من بعده ﴿**وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ**﴾. وسخر له الريح تجرى بأمره، وعلمه مَنطقَ الطيرَ، وغير ذلك.

وقد روى البخارى فى صحيحه هذا الحديث: "رب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره" حيث قاله النبى-ﷺ- فى أنس بن النضر عم أنس بن مالك بن النضر حين كسرت أخته الربيع بنت النضر ثنية امرأة أبى أهلها إلا القصاص ولم يقبلوا العفو، ولا الأرش (الدية)؛ فقال أخوها: أو تكسر ثنية الربيع؟ قال-ﷺ- حد القصاص؛ فقال: والذى بعثك بالحق لا تكسر أبداً؛ فقبل أهل المكسورة العفو فقال عليه الصلاة والسلام: رب أشعث أغبر، لو أقسم على الله لأبره، ونحن إذا حاولنا أن نفقه السر فى ذلك وقفنا

www.ibtesama.com

عند صدق الرجل، الذى خرج يوم أحد مع النبى-ﷺ- وقاتله قتالاً عنيفاً حتى لقى الله- تعالى- شهيداً، وبه جراحات جعلت الناس لا يتعرفون عليه؛إذ ضيعت الجراحات معالمه، فلم تعرفه إلا أخته، عرفته بعلامة كانت فى قدمه-رضي الله عنه- مثل هذا المجاهد الكبير الذى لم يول الأعداء دبره، وجاهد فى الله- عز وجل- حق جهاده إذا أقسم على الله أبره الله، وقد قال ربنا- عز وجل-: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾**.

وقال تعالى: **﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾**. وفى الحديث الصحيح: إن الصدق يهدى إلىَ البر، وإن البر يهدى إلى الجنة، وما زال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإن الكذب يهدى إلى الفجور، وإن الفجور يهدى إلى النار وما زال الرجل يكذب، ويتحرى الكذب، حتى يكتب عند الله كذابا" والصدق له بعد آخر، بخلاف المعنى الشائع المعروف، وهو الإخبار بالواقع كما هو، ذلك البعد هو الصدق فى المواقف التى تثبت استقرار اليقين فى قلب المؤمن من عدمه ومن ذلك الصدق عند الابتلاء، ألا ترى إلى قوله الله- عز وجل- فى صدر سورة العنكبوت: **﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ. وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾**.

انظر إلى المؤمنين حين رأوا الأحزاب أتوا من كل جانب وزلزلوا، وبلغت القلوب الحناجر، ومع ذلك قال الله تعالى حكاية عنهم: **﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾**، أن الحياة دار ابتلاء، ودار أغيار، وأن صدقَ الإيمان يقتضى مواجهة الابتلاء بالصبر والكفاح، وإما النصر وإما الشهادة، والمؤمن- كما قال النبى-ﷺ- حاله كله خير، إن أصابته سراء شكر، وإن أصابته ضراء صبر؛ وقد قال الله- عز وجل- فى وصفهم **﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**

www.ibtesama.com

رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلا﴾.

هؤلاء هم الذين إذا أقسموا على الله أبرهم الله ألا ترى إلى قوله- تعالى-: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾. ويقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾. وليس معنى الإحسان أن تخرج من جيبك شيئاً، وإنما معناه عام أن تكون محسناً فى كل شىء، وأهم شىء يبدو فيه إحسانك إسلامك ولن يحسن إسلامك حتى تعمل بمقتضاه وعندئذ يبر قسمك الله.

١٣- إن تنصروا الله ينصركم

فى سورة محمد يقول الله- عز وجل- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾. ويقول عز وجل: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ﴾. وقوله سبحانه ﴿فَلا غَالِبَ لَكُمْ﴾. بلا النافية للجنس يعنى أنه إذا نصرنا الله- فلا غالب لنا من جن وإنس وعفريت، وسحر وعين وهذا من عزيز الأحلام وعسيرها التى هى عند الله- عز وجل- يسيرة.

نعم من عزيز الأحلام لنفى الغالب من كل جنس ومن كل مكان، وفى أى زمان، فأنت فى منعة من الله، وهو خير حافظاً وهو أرحم الراحمين، هل يتصور إنسان أنه لا غالب له، وهو وارث ثقافة فيها ما لا يحصى من الغالبين، من نحو قوله: الكثرة تغلب الشجاعة والهوى غلاب، وغلبتنى، والحياة غلب، أى هم وكدر، وما يغلب فيها الإنسان كثير بلا عدد ولا حصر، ولا شك أن تدبر القرآن الكريم، ومن تدبره هذه الآية الكريمة يجعل المرء فى سعادة غامرة، بلا حدود؛ لأنه يشعر باطمئنان؛ لأنه وعد الله- عز وجل- ووعد الله حق، بأن لا غالب لك إن نصرك الله- عز وجل-

www.ibtesama.com

والسبيل إلى نصر الله لك أن تنصر الله، فإن سألت وكيف أنصر الله؟ فالجواب أن معنى نصرك الله أن تنصر دين الله- عز وجل- ولكى تنصر دين الله عز وجل عليك أن تعمل بما أمر، وتنتهى عما نهى، أو أن تلتزم بتعاليم دينك عبادة تعظم شعائرها، فلا تستهين بها، ومعاملة تتقى الله عز وجل فيها، فأنت تعامل الناس بمثل ما تحب أن يعاملوك به، كما جاء فى وصية النبى-ﷺ- لأكثر من واحد، قال له: يا رسول الله، أوصنى؛ فقال له- عليه الصلاة والسلام- عامل الناس بمثل ما تحب أن يعاملوك به، وأنت بلا شك تحب أن يعاملك الناس بأمانة وإخلاص، ورحمة ولين وتسامح، تحب ألا يغشك أحد؛ فلا تغش أنت أحداً، وتحب أن يفى لك الذى وعدك، فكن كذلك وفياً مع الناس إن عاهدتهم، وتحب أن يغفر الناس لك هناتك وذلاتك فاغفر لهم أيضاً لوجه الله- عز وجل- وتحب ألا يمن عليك أحد منهم إن كان ذا يد عليك؛ فلا تمنن كذلك على أحد كانت لك يد عليه، قال الله- تعالى-: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى﴾**، وتحب بلا شك أن يزورك الناس إذا مرضت؛ فزر أنت مريضهم، وتحب ألا يسخر أحد منك، فلا تسخر أنت من أحد، **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ﴾**.

وتحب أن يناديك الناس بأحب الألقاب إليك فناد كل امرئ بأحب الألقاب إليه **﴿وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ﴾**. وتحب أن يؤدى الذى ائتمنته إليك أمانتك فأد الأمانة إلى من ائتمنك **﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾**.

وفى الصحيح يقول-ﷺ-: "أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك". وتحب إن صاهرك أحد أن يرحم ابنتك، وألا يسئ إليها، وأن يستر ويسترها، فكن كذلك إن صاهرت أحداً، أن ترحم ابنته أو أخته، وأن تستر عليها وعلى أهليها، ولا تفضح سرها، وتذيع بين الناس عيوبها، ونقائص أهلها، وسوء عاداتهم وغير ذلك.

www.ibtesama.com

ولا شك أنك تحب أن يحسن إليك جارك، وأن يحترمك الناس، ويوقروك فكن كذلك محسناً إلى جارك، محترماً الناس، كما أنك تحب أن يزهد الناس فيما عندك فكن زاهداً كذلك فيما عند الناس، ولا شك أنك تحب أن يحفظ الناس غيبتك، فأحفظ كذلك غيبتهم، **﴿وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾**.

وكذلك تحب أن يحترم الناس حرمة بيتك فاحترم كذلك حرمة بيوتهم، ولا تقتحم بيتاً بلا استئذان وتسليم، **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾**.

وأنت تحب أن يحب الناس لك الخير فلتكن كذلك تحب لهم ما تحب لنفسك، ففى الصحيح يقول النبى-ﷺ-: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه".

هذه خلاصة من نصر دين الله الذى جعله الله تعالى نصراً له. إذا تحققت تلك النصرة فأنت على وعد من الله حق بأن ينصرك فلا غالب لك، وهذا حلم عزيز المنال لكنه عند الله ذى الجلال يسير جداً!

١٤- (وكذلك نجزى المحسنين)

أوحى الله- تعالى- إليه، وقد ألقاه إخوته فى غيابه الجب: لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون، وبيع يوسف-عليه السلام- بعد أن انتشله السيارة بدراهم معدودة، وكانوا فيه من الزاهدين، وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وكذلك مكن الله- تعالى- ليوسف فى الأرض، ثم قال تعالى: **﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾**. وكما قال تعالى فى قصة يونس-عليه السلام-: **﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾**. قال كذلك فى يوسف-عليه السلام-: **﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾**. والحكم والعلم ليسا من الأشياء

www.ibtesama.com

الهينة، فقد قال الله عز وجل: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

وقال في معرض منه على رسوله-ﷺ- ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾. وقال تبارك اسمه ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.وقال تبارك اسمه: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾. إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الشريفة التى منها قول النبى-ﷺ- "مجلس علم خير من عبادة ستين سنة" وقوله- عليه الصلاة والسلام-: "خيركم من تعلم القرآن وعلمه" ويقول الشاعر:

بالعلم والمال يبنى الناس ملكهمو لم يبن ملك على جهل وإقلال

وهنا قضية من كبرى القضايا المهمة فى بناء الفرد والأمة، وهى قضية الشباب، وصلتهم بالعلم والحكمة، فالشائع بين الناس واقع يخالف ما عليه الهدى العظيم، والنظم الكريم، فهو يقول إن الشباب فترة لهو وعبث، وخطيئة، حدثنى شاب فقال لى: أنت تعلم أن الشباب طبعاً يعيش حياته بالطول والعرض وقد أخطأت مع عدد غير قليل من البنات والنساء، وفضضت بكارة إحداهن، فهل من الواجب على أن أتزوجها، وقبل أن أجيبه استوقفته عند قوله "طبعاً"، وقلت له: ليس ذلك طبعاً، وإنما ذلك على ذات الإعراب شاذاً، أو ابتداعاً فالشباب هم الذين نشروا العلم والدين، وجاهدوا فى الله حق جهاده، نزل بذلك الذكر الحكيم، ونطق بذلك واقع السيرة النبوية العطرة، قال الله- عز وجل- فى أصحاب الكهف ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾، وقد كان الشباب حول رسول الله-ﷺ- علماء ومجاهدين أمثال زيد بن ثابت كاتب الوحى، ومعاذ بن جبل أعلم الأمة بالحلال والحرام وعبدالله بن عمر- أشد الناس إتباعاً لسنة رسول الله-ﷺ- وأسامة بن زيد حب رسول الله-ﷺ- وابن حبه، عينه النبى قائد جيش فيه كبار

www.ibtesama.com

الصحابة. ولم يكن بلغ العشرين من عمره، هؤلاء هم الشباب، وهم الذين ينبغي أن يقال فيهم "طبعاً" أى طبعاً هم القوة التى تستغل فى طاعة الله ورضوانه وخاضوا معه الحروب، وغزوا معه الغزوات، وكان بعضهم يبكي إذا رده النبى-ﷺ- لصغر سنه، وقد جاءه يحمل سيفه، ويقول: أنا مصارع يا رسول الله، لا تنظر إلى صغر سنى، فكيف صرنا بالشباب إلى هذه الطريقة المؤسفة التى يقال فيها طبعاً إنه سكير، صاحب نساء، يقضى الليل معربداً ومدمناً، ويعتدى على الصغار بالضرب، وعلى الكبار بالإهانة، وعلى الطرقات بالأذى، ومطلوب منهم ومن غيرهم أن يميطوا عنها الأذى، صحيح أن هناك بفضل الله شباباً ملتزمين ومشرفين نراهم يصلون، ويصومون، ويطلبون العلم بجد، وهم على خلق حسن، لكن الغالب هو ما يزعجنا من سلوك هؤلاء الذين إذا ركبوا سيارة انطلقوا كالسهام يحفرون بها الأرض، ويزعجون الناس بأصواتهم المنكرة، وألفاظهم البذيئة، وسلوكياتهم المنكرة، ناهيك بالأعمال الدرامية الكثيرة التى تصدر تلك المآسى والمعاصى التى يرتكبها الشباب، ولا ندرى أهى تصدر واقعاً وتعالجه كما يزعم أصحابها، أم أنها خيال ومبالغة ينتقل إلى الشباب فيتأثرون به، ويجب علينا إزاء تحقيق الأحلام العظيمة التى هى عند الله- تعالى- يسيرة أن نربى شبابنا على الدين وأن نغرس فيهم أن تلك الفترة التى هى فترة الشباب قوة لن تعود، وهي جملة اعتراضية بين جملتين من الضعف ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾. فلن يعود الشباب أبداً بعد زواله. فهلا انتهزتموه فى طاعة الله كى يؤتيكم الحكم والعلم.

١٥- وأن لو استقاموا على الطريقة

فى سورة الجن يقول الله- سبحانه وتعالى-: ﴿وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾. والطريقة: الإسلام، والاستقامة عليه دوام العمل بمنهجه، والالتزام بمبادئه وآدابه. والماء الغدق: الرزق الواسع الشامل لصنوف الخيرات، وعبر عن

www.ibtesama.com

جميعها بالماء؛ لأن الماء سر الحياة، والعوام يفهمون هذا المعنى ويستعملون الماء فيه، يقول الناس: الماء قليل، ولا يقصدون بذلك السائل المعروف، إنما يقصدون المال، وهكذا، ولا شيء أعز من أن ترزق من كل شيء، فهذا حلم صعب المنال، لكنه بالنسبة إلى الله عز وجل يسير جداً فلو أعطى ربنا- سبحانه وتعالى- كل إنسان مسألته ما نقص ذلك من ملك الله عز وجل شيئاً؛ فإن ربنا تعالى لا تفنى خزائنه. ولا يحظر عطاؤه، قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾. وقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾.

والسبيل إلى تحقيق هذا الحلم العظيم الذى هو عند الله- تعالى- عظيم الاستقامة على منهج الدين، وقد وصى رسول الله- ﷺ- رجلاً- بقوله: "قل آمنت بالله- تعالى- ثم استقم" وفي محكم التنزيل يقول الله- عز وجل- ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾.

وما أيسر الاستقامة على من وفقه الله- تعالى- إلى فقه دينه وما أصعبها على المترددين الذين يستقيمون يوماً وينحرفون أياماً.

ومأساة هؤلاء تكمن فى ثقافة خاطئة هى أن الدين عندنا- إلا من رحم الله- حالة، لا حياة، أى أننا فى رمضان مثلاً نكون أقرب إلى الاستقامة، حيث نلتزم الصوم، ونواظب على الصلاة، ونخرج الصدقات، ونعد الموائد التى أطلقنا عليها موائد الرحمن، ونتلو القرآن الكريم، ونصل الأرحام، وغير ذلك، وبعد أن ينقضى رمضان، تخلع المرأة غطاء الرأس، وتعود سيرتها الأولى مع التبرج ولبس الضيق، وتهجر المساجد، وتهمل المصاحف، وما أشبه ذلك بقول شوقى:

رمضان ولى هاتها يا ساقى مشتاقة تسعى إلى مشتاق

www.ibtesama.com

أى مضى رمضان، فهيا إلى الخمر التى كنا نشربها قبله، فهى مشتاقة إلينا ونحن فى شوق إليها، وكأن رمضان زمان الدين والاستقامة على منهجه ومبادئه، هذه حالة، والدين حياة لا حالة.

وكذلك المناسبات الدينية، فمثلاً درسنا فى الفقه الإسلامى أن من الفروق بين الحج والعمرة أنه لا زمان للعمرة، فهى تصح فى أى وقت من السنة بخلاف الحج فله ميقات زمانى معروف من أول يوم فى شوال إلى التاسع من ذى الحجة" وانظر إلى الناس كيف أطلقوا عليها (عمرة المولد النبوى) و(عمرة رجب) و(عمرة رمضان) فهل يصح هذا الإطلاق! وهل تراه إلا دليلاً على أن الدين صار عندنا حالة لا حياة، فربطنا شعائره بالمناسبات الدينية، المولد النبوى، ورجب المحرم ورمضان!

وكذلك المناسبات الخاصة، ومن أمثلتها المرض، ترى المرء عند مرضه متضرعاً خاشعاً داعياً، متصدقاً، أقرب ما يكون إلى الاستقامة، وكذلك من يحبه إذا وجد من يحبه، فإذا شفاه الله عز وجل، وانتعش عاد سيرته الأولى من عدم الاستقامة.

وأن تكون للإنسان حاجة، تراه يسأل عن صلاة الحاجة، وعن دعاء يحقق له حاجته، ويستقيم، ويقصد الأيمان والنذور، فإذا تحققت حاجته فلا صلى ولا صام، ولا أخرج شيئاً ابتغاء وجه الله- عز وجل.

ومن مناسبات المسرات أن ينجح ولده، أو تتزوج ابنته العانس، تراه يذبح، كما يذبح عند شراء سيارة جديدة، أو يبنى أو يشترى بيتاً جديدا، وفى الزواج شرعت الأطعمة، لكن لا ذبح عند شراء سيارة أو بناء بيت جديد، فإن الذبح من الشعائر، والشعائر التى يذبح فيها العقيقة عن المولود، والأضحية، والهدى، والنذر، وليس منها شراء شىء ما، لكنها المناسبات والعادات، والله تعالى يقول فى عباده المتقين الذين أعد لهم جنات عرضها السماوات

www.ibtesama.com

والأرض: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾. فلا أدل على الاستقامة من إنفاقهم فى السراء والضراء، يقول أحدهم لولده الذى قال له: إنك معذور لفقره، وكان يتصدق وهو فى حال الفقر: أخشى أن أقطع عادتى مع الله، فيقطع الله عادته معى، وقد سئل- ﷺ- عن أحب العمل إلى الله فقال: أدومه وإن قل.

١٦- لئن شكرتم لأزيدنكم

روى أن رجلاً سأل كريماً درهمين فأعطاه أربعمائة، فسأله خازنه قائلاً: كيف تعطيه أربعمائة وقد سألك درهمين! فقال ذلك الكريم: لقد سألنى على قدره؛ فأعطيته على قدرى، فما بالنا بقدر الله- عز وجل- القائل: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيد﴾. فجعل ربنا- عز وجل- الشكر سبيلا إلى زيادة نعَمه علينا، وهذا مما لا يحد بحد ولا يعد بعد، فما الشكر؟

يظن كثير من الناس أن معنى الشكر أن تقبل يدك ظاهرها وباطنها وأنت تقول: الحمد الله والشكر لله مراراً، وتكراراً وليس ذلك من الشكر فى شىء؛ لأن شكر الله- عز وجل- عمل فإن صحب العمل قول فلا بأس، أما أن يكون الشكر مجرد قول فلا، قال الله- عز وجل-: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُور﴾.

وقد تورمت قدما رسول الله-ﷺ- من قيام الليل، فلما قيل له: ألم يغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال عليه الصلاة والسلام. أفلا أكون عبداً شكوراً.

من أجل ذلك كان دون زيادة النعم التى هى أحلام عظيمة، وهى عند الله- تعالى يسيرة جداً أهوال، فى تحقيق معنى الشكر على وجهه الصحيح، وهو العمل، فإن كنت ذا علم فشكرك إياه أن تنشره، وأن تفيد به الناس وإن كنت ذا مال فالصدقة أفضل العبادات على الإطلاق فتطوع بعد إخراجك زكاة مالك، وأنفق،

www.ibtesama.com

عسى أن تصيبك دعوة الملك الذى يدعو كل صباح: اللهم أعط منفقاً خلفاً، وإن كنت ذا جاه وسلطان فقرب إليك الضعفاء، وذوى الحاجات واقض حاجتهم، ففى الحديث الصحيح الشريف "والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه" وقد قال الله- عز وجل- فى آية القصص: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾. أى كن مريداً للآخرة، أى جنتها ونعيمها فيما أتاك الله ولو فطنت الأمة هذه الآية الكريمة، فابتغى أفرادها الدار الآخرة بما أوتوا، هذا من علمه، وذاك من ماله، وذلك من وظيفته التى هو أمين عليها ومؤتمن، لارتفعت راية الدين وتحسنت أحوال الفرد والأمة؛ فإن هذا السلوك المفقود كان سبيلاً إلى زيادة النعمة.

وقد جاء النظم الجليل بلفظة "كفر" فى مقابلة "الشكر" ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾. وفى البخارى باب عنوانه "كفر دون كفر" ومعنى الكفر: الستر، أى من ستر نعمة الله استحق عذابه، وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾. فأين التحدث بالنعمة عند كثير من المسلمين الذين يلزمون الشكوى، ويقولون: ليس معنا، ليس عندنا، ودائماً يشكون مر الشكوى وهم قد يسر الله- تعالى- عليهم، وليسوا فى حاجة، بعضهم يحب أن يتزود بالكثير، وفى الحديث: "من سأل الناس وعنده فإنما يتزود من جمر النار" وبعضهم يرى ذلك دفعاً للحسد، والحسد لا يضر إلا بالحاسد، ولا يضر بالمحسود.

اصبر على كيد الحسود فإن صبرك قاتله

فالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله

والله- عز وجل- يقول فى آية النساء: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾.

أى برغم حسد الحاسدين أتى الله- عز وجل- آل إبراهيم- عليه السلام- الكتاب والحكمة، وأتاهم ملكاً عظيماً. وفى الحديث

www.ibtesama.com

الصحيح الذى رواه البخارى وغيره: "إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده" قاله-ﷺ- فى رجل بدا بهيئة رثة؛ فسأله: ألك مال؟ قال نعم يارسول الله فقال-ﷺ-:أكرم نفسك كما أكرمك ربك.

وفى رواية: إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، فالظهور بمظهر حسن من آيات التحدث بالنعمة، وقد كان-ﷺ- أطيب الناس شكلاً، وأطيبهم رائحة، وثوباً ونعلاً. سئلت أم المؤمنين عائشة- رضى الله عنها- عن طيبه-ﷺ- فقالت: كان طيبه أطيب الطيب، وقد أكل الحلواء، وكان-ﷺ- يأكل من الشاة الكتف وهو أطيبها، ولكننا مع الأسف نسبنا إليه الفقر، وهذا مما لا يليق بحال، فهو أغنى الناس نفساً ومالاً، وقد شكر الله بلا شك فكيف يتصور عنده النقص، والله- تعالى- يقول: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُم﴾!

أحلام يسيرة دونها أهوال

التضرع إلى الله يكشف البلوى، والبأساء، وهو أمر يسير، وكشف البلوى بالنسبة إلى الله- عز وجل- أيسر، فإن الله- ربنا- لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء، قال زكريا-عليه السلام- ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾؛ فقال تعالى ﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾. وقالت مريم- عليها السلام-: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾. فقال الله- تعالى-: ﴿كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾. نفدت الأسباب ورأت العيون ألا أمل، وكان من الله كل أمل، ما شك أحد من الكفار فى هلاك إبراهيم-عليه السلام- بالنار الموقدة لكن الله نجاه، حيث قال: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾.

وقال أصحاب موسى-عليه السلام-: إنا مدركون لما تراءى الجمعان فقال: كلا إن معى ربى سيهدين، فهداه الله- عز وجل- وأوحى إليه أن اضرب بعصاك الحجر، فانفلق، وسلك فيه طريقاً يبساً، وأدركه فرعون وجنوده؛ فأغرقهم الله- عز وجل ونجى موسى ومن معه أجمعين.

www.ibtesama.com

وخاف أبوبكر -رضي الله عنه- على رسول الله -ﷺ- فقال له -ﷺ- ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، إن المحال بالنسبة إلى الناس يسير عند الله لأن الله- عز وجل- أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

وقد قال الله- عز وجل-: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ . فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ . فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

فتأمل قوله- تعالى-: ﴿فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾. أى أن الذين جاءهم البأس لو تضرعوا لكشف الله- تعالى- البأس عنهم، ولكن كما قال الله- عز وجل- قست قلوبهم.

وهذا معنى جديد لقسوة القلب، ربما مرت علينا الآيات الكريمة، ولم نتوقف عنده ملياً، حيث جرت عاداتنا على أن قاسى القلب هو الذى يفجر عند الخصومة، وهو الذى يأب أن يعفو عمن ظلمه، أو يسامح فى بعض حقه، أو يقطع رحمه، أو يعق والديه، أو يضرب ولده، أو يضرب خادمه ضرباً شديداً، وغير ذلك.

وههنا يبين لنا ربنا- تعالى- أن قاسى القلب هو الذى إذا أصابته مصيبة أبى أن يتضرع إلى الله ويتمسكن، ويدعوه كى يكشف الضر عنه، انظر إلى أيوب -عليه السلام- حين تضرع إلى الله- تعالى- وشكا إليه حاله، وأثنى عليه بما هو أهله؛ فكشف الله عنه الضر، وأتاه أهله ومثلهم معهم رحمة من عنده- عز وجل- وذكرى للعابدين.

www.ibtesama.com

قال الله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾.

فأى شيء يتذكره العابدون سوى أن يتضرعوا لله رب العالمين كما تضرع، ويثنوا على الله- عز وجل- كما أثنى ويكونوا على يقين من كشف الله- عز وجل- الضر عنهم كما كشف عنه-عليه السلام-.

إن قساة القلوب هم الذين لا يتضرعون إذا أصابتهم الكوارث، ومن ثم كانوا على مقربة من الهلاك، إثر فتح الله عليهم كل باب، وحين يفرحون بما أوتوا يأخذهم الله بغتة فيطبق عليهم اليأس دون تدخل ولو طفيف من بارقة أمل وتحيط بهم غياهب الأخذ الشديد ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

ما كان أيسر أن يرفعوا أكف الضراعة، ومن ورائها ضلوع منكسرة، واعتراف بالتقصير، وتبتل إلى الله على صدق أن يكشف البلوى، حتى يعودوا إلى صالح الأعمال، لكن دون هذا التضرع أهوال من قسوة القلب، تلك القسوة التى تمتد بلا شك من عدم التضرع إلى الله عز وجل- إلى عدم الاعتذار للناس، وركوب الرأس وفاسد العادات الذى يصور للمرء أنه ضعيف إذا اعتذر حتى وإن كان ذلك صحيحاً عند الناس أفيكون صحيحاً عند الله، وقد قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

www.ibtesama.com

المحتوى

الموضـــــــــوع	الصفحة
مقدمة	٣
الفصل الأول : أحلام يسيرة دونها أهوال من النفس البشرية	٧
١- أحلام يسيرة دونها أهوال	٩
٢- أحلام يسيرة لكن دونها أهوال	١٣
٣- أحلام دونها أهوال يسيرة	
٤- أحلام يسيرة دونها أهوال	١٦
فقد اللغة	٢١
فقد العلم	٢٣
فقد التعارف	٢٥
٥- أحلام يسيرة دونها أهوال	٢٧
٦- أحلام يسيرة دونه أهوال	٤٦
(ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون)	
٧- أحلام يسيرة دونها أهوال	
لو بالعين	٤٨
٨- أحلام يسيرة دونها أهوال	٥٠
٩- أحلام يسيرة دونها أهوال	
فقد الثقافة الدينية الصحيحة	٦٠
١٠- أحلام يسيرة دونها أهوال	٦٢
١- ثقافة السوء	٦٣
٢- ثقافة السوء (ذكر السينات)	٦٥
٣- ثقافة السوء	٦٨
٤- ثقافة السوء	٧٠
٥- ثقافة السوء	٧٣
٦- ثقافة السوء (بثر روح الرعب)	٧٥

www.ibtesama.com

الموضـــــــــــوع	الصفحة
٧- ثقافة السوء (سوء الظن)	٧٨
٨- ثقافة السوء (الاستشارة الخائبة)	٨٠
٩- ثقافة السوء (تمنى القليل)	٨٣
١٠- ثقافة السوء (قل يا رب)	٨٦
الفصل الثاني: أحلامنا العسيرة يسيرة عند الله لكن دونها أهوال	٨٩
١- العسير عندنا يسير عند الله ولكن	٩١
٢- العمل يحقق عسير الأحلام	٩٣
٣- إقامة الدين تحقق عسير الأحلام	٩٥
٤- تقوى الله تحقق عسير الأحلام	٩٨
٥- إن الله يغفر الذنوب جميعاً	١٠٠
٦- الاستغفار يحقق عسير الأحلام	١٠٣
٧- فعند الله مغانم كثيرة	١٠٥
٨- فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله	١٠٧
٩- وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل	١٠٩
١٠- وكذلك ننجي المؤمنين	١١٢
١١- وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه	١١٤
١٢- رب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره	١١٧
١٣- إن تنصروا الله ينصركم	١١٩
١٤- وكذلك نجزي المحسنين	١٢١
١٥- وإن لو استقاموا على الطريقة	١٢٣
١٦- لئن شكرتم لأزيدنكم	١٢٦
١٧- أحلام يسيرة دونها أهوال	١٢٨

www.ibtesama.com

التحويل لصفحات فردية
فريق العمل بقسم
تحميل كتب مجانية

بقيادة
** معرفتي **

www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

شكرا لمن قام بسحب الكتاب

www.ibtesama.com

www.ibtesama.com